
مبارك علي الدعيلج
المطاوعة
تم تحميل هذا الكتاب من
منتديات الإيثار
www.ithar.com

مبارك علي الدعيلج

«المطاوعة»

الإهداء

رحلت ولم يبق لنا سوى الذكريات والدموع

إلى روح أخي وصديقي

أحمد بن عبدالله الرميح (رحمه الله)

١

اللون البني وضع بصمته على الوجوه، الملابس، الأثاث، والمساكن. وهذا المنزل كان كجميع منازل الرياض يحيط به سور مرتفع من جميع الجهات وبه نخلة أو نخلتان تضفيان نوعاً من الجمود والصبر والطيبة على الحياة هناك.

دخل علي مسرعاً وهو يتجاوز قسم الرجال متجهاً إلى بطن الدار[1] وهو ينادي:

أبوي علي.. أبوي علي.

أطلّت عليه والدته من المطبخ ورغوة الصابون تغطي يديها ورائحة

(١) بطن الدار: الصالة.

الكبسة قد خرقت جميع الحواجز الأنفية في المنزل وهي تتساءل:

وش عندك[٢] وأنا أمك؟!

وهو يجول بنظره في الصالة وقد تناثرت بها المراكي[٣] والمساند، وأمام المركى الذي في رأس الصالة تبقت هناك آثار لدلة قهوة قضي عليها وأعداد كثيرة من نوى التمر، مما يعطي دلائل واضحة على أن الجد كان هناك قبل فترة أو ربما لحظات:

أبغى[٤] أبوي علي.

تقدمت منه والدته وهي تعدل شيلتها[٥] محاولة الاستفهام منه:

وش أنت مسوي؟![٦].

وهو يدير ظهره متجهاً لغرفة جده:

أبد عندي خبر ودي أبشر به[٧] أبوي علي.

تعود أدراجها لعالمها الساحر المليء بالصحون والملاعق والقدور وهي تتحسر:

---

(٢) وش عندك: ماذا تريد.
(٣) المراكي: قطعة يتكئ عليها أثناء الجلوس.
(٤) أبغى: أريد.
(٥) الشيله: غطاء تستخدمه المرأة لرأسها ووجهها.
(٦) مسوي: عملت.
(٧) ودي ابشر به: أريد أن أبلغه بخبر مفرح.

أخ منكم يا اللي أساميكم علي

ويصل إليها صوته وهو يحاول مداعبتها:

تقدرين(٨) تقولين ذا الكلام قدام أبوي.

فترفع صوتها لتسمعه مستسلمة

لا والله ما أقدر، الجد علي والولد علي.

******

يدلف علي إلى غرفة جده الذي كان قلمه يداعب بعض الأوراق محاطاً بأصابعه الحانية في جهة من الغرفة. أما في الجهة الأخرى فكانت الكتب قد تعاركت مع الأوراق فتجندلت صريعة في أنحاء الغرفة، وعلى الجدار صور مختلفة تذكر الجد بماض جميل وتنبئ الزائر بأن هذا الكهل القابع في إحدى زوايا الغرفة قد كان من صانعي التاريخ والحياة على الأقل بالنسبة لتلك العائلة الصغيرة.

مقبّلاً رأس جده:

مسّاك الله بالخير(٩) يا أبوي

ينظر إليه الجد مبتسماً وكأنه رأى فيه شبابه المتمرد:

هلا بولدي وسميي(١٠) وأغلى عيال ولدي عندي.

---

(٨) تقدرين: تستطيعين.

(٩) مساك الله بالخير: أسعد الله مساءك.

(١٠) سميّي: اسمه مثل اسمي.

كانت أذنا علي قد تعودتا على سماع هذه العبارات من جده، لذا حاول صرف اهتمامه لما يحمله من أخبار:

دريت يا بوي وش صار في الديرة؟

يحس بأهمية الخبر على الأقل بالنسبة لشاب مثله فيعتدل في جلسته وهو يشد غترته إلى الأمام:

عسى الديرة ما جاها خلاف؟![١١].

يبتسم علي:

إلا الخير كله يا بوي.

عطني وش عندك ولك البشارة[١٢].

وافق مجلس الأمن الدولي على أن تكون ديرتنا إحدى الدول اللي لها حق استخدام الفيتو.

اختلطت ابتسامة بدمعة في وجه الجد ورفع يديه بالدعاء:

الحمد لله والشكر لك يا رب على هالنعمة.

يشد صدره إلى الأمام مخاطباً جده:

٢٠٦٦/٧/١١م يوم تاريخي للأمة العربية.

بكى الجد بمرارة وأخذ يمسح دموعه بطرف غترته:

---

(١١) ما جاها خلاف: أصابها سوء.

(١٢) البشارة: الهدية أو المكافأة.

تأخرت كثير يا ذا اليوم.

استغرب علي عبارة جده:

وش تقصد يا بوي؟

وهو يشير إليه بالجلوس:

اقعد خلّ اعلمك[١٣] وش صار من ستين سنة.

******

سيارة الهيئة[١٤] تدور وصوت عبر المايكروفون ينادي:

الصلاة الصلاة صل الله يهديك. الصلاة يا عباد الله.

يتكرر هذا المشهد يومياً عند الأسواق وفي شوارع الرياض والنتيجة لا تتغير؟! يقاد أناس إلى المساجد خوفاً مما سيحدث لهم في مقر الهيئة لا خوفاً من ربهم بينما سيارة الطقاقات[١٥] كما يسميها بعض الشباب الزكرت[١٦] تجوب تلك الشوارع، بالرغم من ازدحامها بكل شيء. صحيح أنها فسيحة ومرصوفة واصطفت على جانبيها أعمدة الإنارة وبعض الأشجار وكأنها قد وقفت احتراماً للمارة ولكن عندما تكون الحال في رياضنا تجد الشوارع تضيق إما بسبب أعمال حفر لا تنتهي، وتغار منها بضائع بعض المحال فتحاول

---

(١٣) خلّ اعلمك: دعني أخبرك.

(١٤) الهيئة: هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(١٥) الطقاقات: مطربات الأفراح.

(١٦) الزكرت: الذي يحب المظاهر ويخالف التقاليد.

التقرب إليها بأن تتمدد على الرصيف للوصول إليها وحاويات النفاية الصفراء قد أعلنت الإضراب، فتوقفت في الشوارع والبشر يتكاثرون دون حسيب أو رقيب وحرارة الصيف خانقة، والشتاء يجمد الزئبق، أين ما تحدثنا عنه كتب الجغرافيا من ربيع وخريف، أم هي مجرد تقسيمات؟ هل يكذبون أم أن طقسنا حالة استثناء.

مساكين مغلوبون في أمرهم هؤلاء العمالة الآسيوية. عيون مرتبكة، غارت حزناً لفراق الأهل والأحباب، لسان أضاعته الحيرة بين أصله واللغة العربية.

فلذلك تجد صوته يرتفع بلغة عربية مكسرة كتكسر أوراق خريفية سحقتها أقدام همجية.

سديق.. سرئة.. سرئة بئدين هذا متوأ يسوي جنجال(١٧).

نظر إليه والدي باستغراب وبلغة أشد تكسراً من سابقتها:

ليه سوي جنجال يا صديق؟!

أطلت نظرة خوف المذنب من عينيه وهو يقول:

أسان أنا ما فيه سكر مهل وكت سلاة.

حاول والدي أن يعطيه بعض عبارات الطمأنينة الكاذبة:

لا يا صديق هذا مطوع(١٨) كله كويس.

---

(١٧) يسوي جنجال: يعمل مشكلة.
(١٨) مطوع: الملتزم دينياً.

أحس بكذبة والدي فأراد أن يرد بضربة قاضية. كذبة مرضية لجميع الأطراف، وهو يرفع يده معلنا نهاية الحديث:

سوف سديق كل نفر رياد كويس.

أيعقل أن كل نفر في رياد كويس؟!

دار هذا التساؤل في ذهن ذلك الطفل الصغير الذي كان مع والده أثناء حواره مع ذلك العامل الآسيوي. هذه التساؤلات خزنتها ذاكرة الطفل البصرية سنين عديدة ومع مرور السنين انتقلت إلى أرشيف المخ ولكنها نثرت الآن على الورق بعد أن أصبح ذلك الطفل رجلاً. ولكن ما الذي جعله يتذكر هذا الحديث بالذات؟! هل هناك ناموس نزل عليه من السماء في هزيع الليل الموحش وقال له: أتذكر ذلك الحوار؟

ولربما ذكره بتلك الأسئلة البريئة التي طرحها ذلك الطفل على والده الذي راوغ وكذب على ابنه لكي لا يقول الحقيقة؟! فهل بالضروري أن يكبر الشخص ليعلم أن والده قد كذب عليه في بعض المرات؟!

آه كلما تذكرت ذلك السؤال الذي طرحته على والدي تفيض عيناي حيرة. فقد كنت كمركب في بحر من الأمواج الهائجة الغادرة يبحث عن ميناء هادئ مسالم يلجأ فلا تجده. لماذا لم تكن يا والدي أنت مينائي؟!

أغمض عيني لأنسى فأتذكر، وأطرد الماضي فأجده ينتظرني على قارعة طريق المستقبل، من يتحمل جريمة تزييف الحقيقة لذلك الطفل

ليدرك أن قوات الواقع وجيوش الحقيقة تحاصره فيذعن لها ويرفع الراية البيضاء. ليتني أستطيع أن أعود إلى الماضي فأمسح بعض سطوره! لماذا أيها الناموس لم تذكرني إلا بذلك السؤال؟!

- أبوي.. أبوي

وهو ينظر إليّ مطمئناً:

وش عندك وأنا أبوك؟!

لم تُجدِ نظرات الاطمئنان فأصيب بحيرة وارتباك بل ربما خوف وخرج السؤال رغماً عنه خائفاً يترقب:

ليش[١٩] هالهندي خايف ويقول سرئة.. سرئة؟

وبمراوغة كاذبة:

بلاه وأنا أبوك مطوع ويبغى يلحق[٢٠] الصلاة بالمسجد

وببراءة طفولية:

وأنت ليش منتب مطوع؟[٢١].

آه تذكرت تلك الضحكات الساخرة من والدي وهو يقول:

الحمد لله على النعمة. الصلاة وما نخليها[٢٢] بالمسجد.

ما هذه النعمة التي يشكر الله عليها؟! أيحمده على أنه لم يصر

---

(١٩) ليش: لماذا.

(٢٠) يبغى يلحق: يريد أن يدرك.

(٢١) منتب مطوع: لست ملتزماً.

(٢٢) وما نخليها: لا نتركها.

مطوعاً وما بهم المطاوعة؟! أتراهم ملائكة منزلون أم بشر مثلنا يصيبون ويخطئون ويأكلون ويشربون؟! كل المخلوقات هكذا حتى البهائم.

أليس الذكَر منهم يشتهي الأنثى؟ الله كم من مرة طربت جدتي وهي تستمع لثغاء التيس وهو يردده على مسامع محبوبته العنز، فهذا الثغاء في حقيقته أبيات غزل فاحش يذكر بها التيس محبوبته بالقوايل[٢٣] الحمراء التي قضوها سوية.

تذكرت ذلك اليوم الذي تلصصت فيه على غرفة والدي لأعرف ماذا سيصدر في الصباح من قرارات والتي يعلنها عادة أبي بصفته (رئيس مجلس إدارة العائلة) على وجبة الإفطار، وأحياناً لا يصدر عنه شيء عندما يكون منهمكاً في مشروع استقدام عنصر جديد للعائلة.

جلس والدي في غرفة نومه مستنداً على الجدار وقد خلع ثوبه ولم يبق عليه سوى فانيلة علاق وسروال يصل إلى الركبة وهو يعبث بمسبحته وينظر إلى الأرض فيما والدتي كانت تنظر في مرآة قديمة وقد نقضت شعرها[٢٤] من ظفائره وخلعت غطاء رأسها وكانت تضع قليلاً من الكحل على عينيها وهي تتمتم بأغنية محببة إلى قلبها:

وردك يا زارع الورد.. فتح ومال في العود

استلقى والدي على فراشه الذي يتكون من مطروحة[٢٥] قد زينت

---

(٢٣) القوائل: جمع قائلة وهي فترة راحة الناس وقت الظهيرة.

(٢٤) نقضت شعرها: فلّته.

(٢٥) مطروحة: مفرش يوضع بين الشخص والأرض عند النوم.

بورود حمراء وصفراء وزرقاء وتغطى بشرشف[٢٦] رقيق ذي لون أخضر فاتح، وبالقرب من رأسه ساعة (صليب) ذات أرقام فوسفورية خضراء لتوقظه وقت صلاة الفجر.

نهض من فراشه مرة أخرى وكأنما هناك ما يقلق راحته، فانتبهت والدتي فوضعت الكحل وتوقفت عن التمتمة بتلك الأغنية، وأخذت تراقب حركاته وهو يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ومرة يضع النظارة ليقرأ في بعض كتبه ثم يغلق الكتاب ويضع النظارة جانباً، فتجرأت هامسة خوفاً من أن تقطع حبل أفكاره:

وش بلاك[٢٧] يا أبو علي؟!

توقف عن الحركة ثم التفت إليها وقال:

اليوم كلمني مطوع المسجد[٢٨].

وش يبغى يا أبو علي؟

وبدون اقتناع بالعبارات التي سيطلقها أو كمن ألقى عن كاهله حملاً:

يخطب نجلاء لولده.

رفعت بصرها إلى سقف الغرفة حقيقة ولكنه تجاوزه إلى ما هو أبعد ممتطياً جواد فكرها إلى عالم الخيال وهي تردد متمنية وهي تتنهد

---

(٢٦) الشرشف: غطاء رقيق يستخدم في الصيف.

(٢٧) وش بلاك: ماذا بك.

(٢٨) مطوع المسجد: إمامه.

تنهيدة خفيفة رقيقة كأحلامها:

أيه وجاء اليوم اللي أشوفك فيه يا نجيلا عروس!

انفجرت قنبلة وتردد صداها في أنحاء عالمها الخاص الصغير وأعادها من خيالها بعبارة خرجت من والدي رغم أنفه مع ما بذله من جهود جبارة وخارقة محاولاً إلغاءها:

ظنّك أبوافق؟!

اقتربت منه أكثر فأكثر متعمدة استخدام سلاح النساء الذي أودى بيوسف إلى السجن وبوالدي إلى الموافقة، وألهبت حرارة أنفاسها جو الغرفة فوصلت إلى الشعرة التي بين الأمل واليأس متأملة في الدقائق القادمة خيراً.

وش فيها ما توافق.. أهله مطاوعه؟!

ثم أضافت بدلال:

وأكيد هو بيصير مثلهم!

كادت الأنوثة أن تهزم الرجولة كما تفعل دائماً. ولكن والدي تدارك نفسه وطلب الهدنة فداعب شعرها بحنان وتلطف:

أهم شيء رأي نجلاء.

أفتر ثغرها عن ابتسامة تضاهي بجمالها ابتسامة الموناليزا، وبنشوة منتصر في حرب كاد يخسرها قالت:

توها[٢٩] صغيرة وما تفهم مصلحتها.

ثم أردفت وهي تعانقه بغنج ودلال:

بس لا يطير[٣٠] من يدينا هالمطوع.

تمدد على فراشه وقد أولاها ظهره محاولاً تمديد الهدنة معها:

نومي والصبح فيها فك وفلك[٣١].

---

(٢٩) توها: لا زالت.

(٣٠) لا يطير: لا يفلت.

(٣١) فك دفلك: عبارة تطلق عادة. ويقصد بها أن الله سبحانه يغير من حال إلى حال.

٢

أويت إلى فراشي وأنا أتخيل نجلاء بثوب الزفاف الأبيض وإلى جوارها شاب ملتح يشع نور الإيمان من وجهه. يا إلهي ما الذي أراه؟! شيء لا تدركه قواي العقلية. حتى والدي قد أرخى اللحية بعد أن كانت سكسوكية! والثوب خاصم الأرض فارتفع إلى عنان السماء فوصل إلى ما قبل الركبة، ووقف في قرية صغيرة تدعى (منتصف الساق). وتجرأت خيالاتي وتجاوزت جميع الخطوط الحمراء وألقت بمقص الرقيب وراء ظهرها، فغنت نانسي عجرم في حفل الزفاف وأمامها فيفي عبده ترقص، ولكن حذيفة زوج نجلاء التفت إلي وكأن نظراته تقول لي: ما هذا السخف؟!

فارتبكت وتداركت خيالاتي عظم خطئها فحاولنا انقاذ ما يمكن إنقاذه وأصبحت نانسي محجبة وفيفي ترقص على أنغام الدفوف، فالتفت إلى حذيفة محدثاً إياه بلغة العيون: أيرضيك هذا؟!

انعقد حاجباه وبغضب قال: لا أريد شيئاً كهذا حقيقة أو خيالاً أيها العلماني الزنديق. فابتسمت وتحملت من أجل عيون نجلاء ورديت بتلك اللغة التي لم يتحدثها سوانا:

شكراً يا أبو نسب.

وأردفت بتهكم:

ولكن قالوها.. اللي هذا أوله ينعاف تاليه[١].

ثم ذهبت في غيبوبة وقتية هرباً من لهيب شمس الأحلام وسراب الواقع والمتفرعة من شوارع الحقيقة، ولم أعد من رحلتي الغيبوبية إلا على يد والدتي الحانية وهي تهزني برفق:

علي.. علي، قم وأنا أمك.

وبصوت متأثر بالنوم ومحفوف بملامح النعاس:

آه.. آه. طيب.. طيب، يا يمه.

تصر وغيمة حنانها تمطر بالدعاء لي:

علي.. الله يفرحني فيك.

علي، جعلي ما أبكيك.

ويتكرر هذا الحوار يومياً، فلا والدتي ملت ولا أنا خجلت. فقاومت لأودع أحضان غانية النوم فأستيقظ مع أولى نسمات حنان حقيقة

---

(١) ينعاف تاليه: ينخاف من آخره.

تعطر أجواء غرفتي. رجعت إلى زمن الأحياء مرفوقاً بنظرات من حذيفة نظرة تلعنني ونظرة تحرقني، وقد طاشت بعض النظرات الخارقة فأحدثت دماراً شاملاً، فالمنازل هدمت والخضرة ماتت وحتى الحديد من حرارتها ذاب، وانصهر كأنه أصبح الحالة السائلة للماء.

ولربما اختلّت موازين ساعتي البيولوجية وتحولت من شدة ارتباكي وخوفي إلى خشب. وعندذاك حمدت الله على ان الإنسان أقوى من الحديد ومن الخشب وإلا لكنت الآن بين يدي نجار ماهر أتوسل إليه أن يمنحني حياة أفضل فيحولني إلى سرير أو دولاب.

ها ها ها ها.. ضحكت كثيراً وأنا أتخيل نفسي دولاباً لإحدى المراهقات. إذذاك سأموت مع كل رسالة غرام وحب أخفيها بين أضلاعي الخشبية وسأموت مع تلك الأشياء اللذيذة المتناثرة داخل أحشائي والتي ترهق أعصاب الشباب وتستفز رجولتهم.

ومع كل صورة توضع لمغنٍّ تمارس معه دور المتيمة المظلومة في انتظار عشيق غائب.

أرجوك يا سيدي النجار لا أريد أن أكون دولاباً أحتفظ بداخلي بالتاريخ والأسرار والهموم والأحزان وتقبع بداخلي كل الظلمات.

وأرجوك يا سيدي ألّا تحولني إلى سرير، فكم من الأشياء التي ستحدث على هذا السرير ستقطع قلبي وتقهر جميع قواي الذكورية

ـ ادخل يا علي الله يهديك.

اندهشت واستغربت وشجبت واستنكرت، ولكنني لن أقول إنني أضربت بل انضربت، أقف الآن أمام باب المدرسة وهذا صوت سعادة المدير يدعوني إلى الدخول.

كيف اختلطت ذكورية واقعي بأنوثة خيالاتي؟! هذا حرام. لا يجوز. فالاختلاط غزو ثقافي غربي بغيض.

دخلت ذلك البناء الذي لا يشبه المدرسة إلا في اسمها، فهو في الأصل أعدّ للسكن ولكنه أجر لوزارة التربية فأصبح المطبخ غرفة للمدير، وصالة الطعام مختبراً للعلوم. والفصول موزعة بين بقية الغرف، والطلاب مكدسون فيها فوق بعضهم البعض، أما صفي فكنا فيه كالراكبين في مصعد حر لاهب وطابق مرتفع، وكل شيء ضيق، حتى النفس يضايقك.

أخذت مكاني في الفصل وسمحت لعينيّ بأن تتواطأا مع نفسي لتتجولا في دواخل طلاب الصف، فأمامي مباشرةً يجلس أيمن وهو ولد جميل كله فتنة وجاذبية ولكن عروص[٢] المدرسة لم يتركوه في حاله، ويبدو أنه لم يبد أية دلالة على الرفض، فقبل أن يدخل دائرة اهتمام هوامير[٣] السوق كان ثوبه يشتكي ويصيح: دخيل الله فكوني[٤] ـ وأما شعره فكان على خلاف في وجهات النظر بينه وبين الشامبو، وأما العطورات فكانت شيئاً في الجنة. ولكن سبحان مغير الأحوال فلقد أصبح شعره صديقاً حميماً للشامبوهات

---

(٢) عروص: جمع عرص وهو الباحث عن الملذات الجنسية الشاذة.
(٣) الهمر: الرجل الغليظ السمين. (هوامير السوق): كبار السوق.
(٤) فكّوني: اتركوني.

وملابسه صارت بنتاً عاقلة في عائلة الموضة، وهذا التغيير لم يكن إلا صفقة قائمة على العبث المتبادل بين الجيب والجسد. وصدقها الحاضر وسيقدسها الزمن المقبل.

إلى يميني جلس عمر، وهو ملتزم دينياً ومن أسرة متوسطة الحال وعائلة كريمة منبتها طيب. أما في الجهة المقابلة فيجلس مصعب، وهو متشدد دينياً لا يعرف ولا يفهم سوى النار والموت والعقاب، وأن بقية العالم كفار مما جعله هدفاً لمناكفات الزملاء.

ففي إحدى المرات تعارك مع أحد الطلاب الذي كان يغني أغنية ماجنة.

يا كافر. يا منافق. يا غربي. أنت ستكون في الدرك الأسفل في النار.

والتقطت أذناه عبارة قالها أحد الطلاب ساخراً:

تلقاه في النار يعزف وأبو لهب يروس(٥) له.

فازداد تلاطم الأمواج وغطتها سحابة سوداء.

كلكم صناعة غربية. أنتم ملحدون. كفار.

حتى وصل إلى مرحلة الهذيان.. وهنا تدخل عمر وأمسك بمصعب برفق:

ألا يكون لنا في رسول الله أسوة حسنة يا مصعب؟!

ارتبك وتردد ثم قال:

---

(٥) يروّس: يدق على الطبلة.

بلى يا عمر.

أضاف عمر.. ألا تذكر أنه صبر على أذى قريش؟! أفلا نصبر على شاب يغنّي؟!

ثم اتجه إلى ذلك الطالب وبهدوء ووقار قال له:

هل تستطيع أن تردد هذه الأغنية أمام والديك؟!

وهو مطرق خجلاً من هيبة عمر:

لا.

لو رأيت شاباً في الشارع يرددها ألن تحتقره؟!

نعم.

فابتسم عمر واحتضن الشاب وقال:

ونحن كذلك نحبك ولا نريد للناس أن يحتقروك.

أما المقعد الذي خلفي فاحتلّه (شنباوي) وهو أحد العروص في المدرسة وقد أطلق عليه أصدقاؤه هذا اللقب ويبدو أنهم أصابوا في ذلك، فما أن ترى ذلك الرأس الصغير الملتصق بمجموعة من العظام المتهالكة تناثرت عليه قطع لحم قليلة وتُدعى مجازاً بالجسد حتى تستغرب منظر تلك الغابة التي استقرت بوسط وجهه ومدت أغصانها لتغطي مساحة كبيرة منه.

لقد كان نموذجاً للعرص الطيب ولا يتقرب لأحد من المردان إلا إذا كان يملك تلك الخاصية المحببة لديه، وقد لخصها في كلمات خلدها تاريخ الانحراف هناك وأصبحت شعاراً لأتباع المذهب الشنباوي،

فقد قال: (من كان فيه ريح[٦] محناب عايفينه[٧]).

أعادني صوت الجرس معلناً بداية يوم دراسي كئيب، فنظرت ودققت ومن ثم تأكدت بأنني لست ملكاً مستوياً على عرش بل شيء ألقاه الواقع بلا مبالاة على كرسي في غرفة صف ليتخرج ويمارس حياة الببغاوات، وبدأت الكآبة تعزف مقطوعة سلامها الملكي مع وصول حشرجات صوت أوس بن جليعيد (معلم مادة الثقافة الإسلامية) وهو يقول:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فحاولنا مهادنة تلك الأعاصير الملعونة والتي تكون عادة عاصفة بالحقد والقسوة:

وعليكم السلام يا أستاذ.

ابتسم وبانت نواجذه فحاول ملاطفتنا:

كيف حال أبناء أمة الإسلام؟

ثم التفت إلى حبيب القلب مصعب:

أخي في الله مصعب، أتسمح بأن تمسح لنا السبورة؟

فرد والسعادة تغمره والفرحة تأمره استجابة لأمر ملهمه وأبيه الروحي ومغذيه بأفكار التشدد والتزمت الديني:

---

(٦) ريح: خلل.

(٧) محناب عايفينه: لن نتركه.

بإذن الله سأمسحها.

أخذ الأستاذ يتجول في الصف ونظراته موزعة بين التهديد والوعيد والويل والتنكيل، ولم يكن ثغره يفتر عن ابتسامة إلا إذا دار السواك في فمه فأجبره عليها، وكان هناك سباق بين طاقيته وشماغه للوصول إلى جبهته ويبدو أن الطاقية قد وصلت أولاً غير أن مجتمعنا الذكوري يرفض ذلك، فسحب شماغه من الوسط ليضعه في أول المضمار. أما ثوبه فكان على علاقة وطيدة مع ركبته، فكانا دائماً يتهامسان. ثم أخرج كشف أسماء طلاب الصف فتنفس الصمت ليعيش ومات الكلام وتوافد الحرّ وأشعة الشمس وشيء من الخوف، ولم يكن يخفف هذا المصاب غير بعض النسمات الرقيقة من البراد. وبدأ الأستاذ في تحضيرنا بالأسماء:

أيمن المصفوق.

وهو يرفع يده:

حاضر.

وأخذ يتفحص أيمن بنظرة ازدراء من أسفل إلى أعلى وهو يشير بإصبعه هازاً يده وقد غطى وجهه بلون أصفر احتقاري:

ما تستحي على وجهك؟

ارتبك أيمن وزاره الأحمر الخجلي وخرجت حروف منكسرة ضعيفة:

ليه؟!

ضرب بيده على الطاولة وبغضب متطرف:

ليه![8] هذا لبس تلبسه. هذا لبس رجال؟![9].

ضاعت عبارات أيمن على دروب الارتباك واستجمع شيئاً من الشجاعة مع رشة من الأمل. غير أن الضعيف يبقى ضعيفاً فذلك القليل من الشجاعة أوصل المسوخ[10] الحرفية إلى مخرجها الفمي فأطلت خائفة مترقبة مستقبلاً أسود مجهولاً:

ما فيها شيء يا أستاذ؟!

وارتفع مؤشر الغضب حتى وصل إلى حالة الهذيان فأرسل بعض العبارات وشيئاً من اللعاب الثقيل لوجوهنا:

ما علموك أهلك إنك ما ترد على اللي أكبر منك؟!

وإمعاناً في احتقاره وكي يظهر لنا أنه (أبو العريف) وأية شاردة وواردة ما تطوف عليه، أضاف غامزاً بعينه مشيراً بيده إلى ملابس أيمن:

أهلك اللي لبسوك هالثياب الزينة؟!

أطرق أيمن خجلاً وكأني به يقول في سره:

---

(٨) ليه: لماذا.

(٩) لبس رجال: ملابس رجل.

(١٠) المسوخ الحرفية: حروف مشوهة.

الله يلعن هالخشة[١١].

ويلتفت إلى مصعب ويهديه نظرة إعجاب لخليفة منتظر:

وش رأيك في أيمن يا مصعب؟!

وهو ينظر بطرف عينه وكأنه ينظر إلى عدو:

يا أستاذ اللي يسرح شعره مهوب رجّال.

فاغتظتُ واندفعتُ باستعجال ماداً يد المساعدة لأيمن:

إن الله جميل يحب الجمال.

خرجت عيناه من محجريهما وتقدم نحوي متوعداً:

إقطع واخس[١٢].

أحياناً يكون الانحناء للعاصفة قمة الشجاعة، فتمسكت بالقمة بكلتا يدي وأنا ألهج له بالشتائم في سري. وانتشر صوت الجرس الهشيمي مطفئاً نيران بغضنا لابن جليعيد ومبشراً بزوال ذلك الكابوس اليومي.

التفت إليّ أيمن وقد غطى روحه السرور والشكر والعرفان بأدب جم:

الله يعطيك العافية، بغيت توهق[١٣] نفسك عشاني[١٤].

---

(١١) الخشة: الوجه.

(١٢) اقطع واخس: كلمة زجر يقصد بها الصمت.

(١٣) بغيت توهق: كدت تورط.

(١٤) عشاني: لأجلي.

سحائب روحه العذبة الرقيقة انهمرت على صحراء نفسي القاحلة فجرت سيولاً من العبارات تدفقت عبر لساني:

الله يهديك يا أيمن حنا ربع.

فحاول تقبيل رأسي:

ليت كل الفصل مثلك.

وأيمن شاب في داخله لطيف المعشر ودمث الخلق ولكن فيروسات الظروف ارتكزت في كل أراضيه فأصبح ألعوبة تتناقلها عواصف العروص. ولهذا صار مجرماً بخطأ لا يغتفر في مجتمع الرحمة فيه نائمة على الورق وحبيسة بين دفات الكتب ما لم يقدم قرباناً من المنصب والمال والجاه فيريق دمه على عتبات معبد التاريخ اللا مقدس.

بعد تلك الحادثة أصبح أيمن أقرب طلاب الصف إليّ، فصرنا نجتمع في الفسحة سوياً وأخذ يتحين الفرص ليكون بالقرب مني، بالإضافة إلى عمر الذي يجالسنا من حين لآخر.

خرجنا إلى فناء المدرسة واختلطنا فيه مع الحصى والأتربة وأشعة الشمس الحارقة وشجرة الكينا اليتيمة حتى أصبحت بيننا وبينهم ألفة ونحن نؤدي هذا الروتين اليومي. وحتى عندما سرت شائعة كل عام بأننا سننتقل إلى مبنى جديد مجهز بكل التقنيات الحديثة التففنا حول شجرة الكينا وكأننا نتوسل إليها بأن ترحل معنا إلى عالم التكنولوجيا، فكأنها ذرفت دموعاً ورقية غزيرة وهي محتارة بين أن تبقى قابعة في مكانها تسليها ذكرياتها وتقلب الماضي باحثة عن أمجادها أو أن ترحل لتبني من جديد مجداً آخر.

اشترى لنا عمر بعض السندويتشات والعصائر وجلسنا في ركن قصيٍّ من الفناء مستظلين بالحرارة تحرسنا نغمات صيفية ساخنة.

أخذ أيمن قضمة من ذلك السندويتش الذي ضل طريقه من معالف الحيوانات إلينا بالمدرسة وأخذ يلوكها، ثم أخرجها من فمه وخبأ كنزه في قراطيس وهو يتأفف:

متى بيتوب الله علينا[١٥] من هالفطور؟!

فتحرك ثعباني بدون شعور:

ما دام حرامية الوزارة موجودين ففطور البهائم موجود.

فنظر إليّ عمر مؤنباً:

استغفر الله. استغفر الله يا علي.

وازداد هيجان ثعباني:

يا خوي كلهم حرامية.

فنهض عمر مغادراً وصوته يبتعد وهو يردد:

استغفر الله.. استغفر الله.

---

(١٥) يتوب الله علينا: وصف للشيء يراد به أنه كالعذاب.

٣

بعض أبناء عمومتي يعيشون بين مطرقة العادات والتقاليد وسندان التدين المزيف، وقد كنا في المناسبات العائلية وكأننا في حفلة تنكرية وكل شخص ارتدى قناعاً ليخفي وجهه الحقيقي الجميل خلف قناع ماتت أحاسيسه وبنَت الشياطين فيه أوكاراً لها.

كنت أحمل دلة القهوة متجهاً إلى مجلس الرجال الذي ارتدى هو الآخر قناعاً تنكرياً أعطاه رهبة مزيفة، حتى إن مسانده ومراكيه أصبحت عابسة كوجه مرتاديه وصارت له حرمة كتاب مقدس.

مغرداً بصوتي الأجش الجميل:

زمان الصمت.

يا عمر الحزن والشكوى.

يا خطوة ما غدت تقوى.. على الخطوة.. على هم السنين.

وترحل.

فسمعني أحد أفراد الحفلة التنكرية ولم أستطع وصف تعبيرات وجهه لأن الأقنعة لا تحمل أي تعبيرات ولكن معانيها فضحتها نغمات حروفه:

يا فاجر يا حمار.. هالخرابيط[1] حرام.

وانتقل من مقام الغضب إلى مقام السخرية والاحتقار:

وإذا بغيت[2] تغنيها فغنها عند أشباه البنات اللي تماشيهم.

انتبه بقية المتنكرين إلى نهيقه فخرجوا كالآيات من الكتاب المقدس، ولم أشعر بوجودهم ولكن أخذت تطعنني نظراتهم وتقطعني ثم تنظمني في أسياخ شواء لعرابيد أتقياء! كل أنواع النظرات رأيتها من خلال أقنعتهم وأيقنت أن عالم النظرات فلك مجهول لم يجرؤ أحد على اقتحامه. مرت ثوان سافرت فيها إلى عالم اللا معقول واختلطت فيه الألوان وتلاشت وصارت لوناً أسود عابساً وتجمعت الغيوم وتشكلت (م.. ط.. و.. ع) واحتلت عبارات خرقاء طبلة أذني، وسيطرت عليها قادمة من شفاه عدة:

يا خوي عيب على علي ما يحترم اللي أكبر منه.

---

(١) هالخرابيط: أشياء غير مفيدة.

(٢) بغيت: أردت.

الشيخ مطوع مهوب كاذب على هالسربوت[٣] وأكيد أنه مخطئ.

ليت أبوه أمرح ذيك الليلة[٤] كان أبرك.

لو أنه صاير آدمي ودارس في تحفيظ القرآن يمكن يصير مثل الشيخ وأحسن.

دلع أبوه الزايد خلاّه مثل البنات.

وعندما سمع الشيخ عبارات التأييد وأحس بنظرات الإعجاب انتفخ كالبالون وارتفع ثوبه من نصف ساقه حتى كاد أن يتجاوز ركبته، وصارت قدماه من الكبر بالكاد تلامسان الأرض وأخذ يخطب في الجمع الخارج من المجلس:

هذا نزغة[٥]. من شفت هالبدل إللي يلبسها والقنوات إللي يناظرها وأنا داري[٦] إن ما فيه رجا خير.

وكأن أحد التنكريين رقّ لحالي فحاول إنهاء تلك الخطبة الحجرية:

يكفي يا شيخ سعد، الولد تعلم وما لك إلا اللي يرضيك.

أما أنا فكنت حائراً بين نظراتي المشتتة بين أبي وخطيب سوق عكاظ وصراخ جلدي الذي يئن من حرارة تلك الدلة.

---

(٣) السربوت: المنحرف.

(٤) امرح ذيك الليلة: أي نام.

(٥) نزغة: قطعة صغيرة ضارة.

(٦) داري: عارف.

فازداد الشيخ هيجاناً وزمجر مكملاً خطبته:

يا حسافة[٧] أبوك وجدك من أطيب الرجاجيل وإلا الضو[٨] ما ترث إلا الرماد.

وهنا قد بلغت درجة الحرارة لديّ مرحلة الغليان وبدأت إعلان تمردي على تقاليد أهملها الزمان في مزبلته ورياح الأمور كالبتها ضدي، فأب سلبي، وتعنيف وشتائم غير مبررة، ودلة حارة أحرقت أناملي الصغيرة. ودنت ساعة الصفر للتصدي لهذا القمع، وقررت الاحتجاج بالطريقة الوحيدة المسموح بها في العالم الثالث فألقيت بالدلة فأفرغت حرارة جوفها على الأرض وأنا أتخيلها كلها وجهاً لذلك المدعو سعداً... وبكيت بمرارة.

******

أبي رجل يطبق الديموقراطية بحذافيرها في مملكة بيته، بالرغم من أن العالم المحيط بنا غير مهيأ لتجارب من الحرية والديموقراطية، ومع ذلك فوالدي رجل سلبي مع التنكريين فهو يعتقد أن التنكريين بقايا عقول حجرية غدر بها الزمان فألقى بها بدون أن يقصد في عصر التكنولوجيا، فهو يترفع عنهم بدون أن يحتقرهم ولكنه يشفق عليهم. ويبدو أن هذا هو السر الذي جعل جدي – رحمه الله – يغضب من والدي عندما رفض أن يتزوج ابنة عمه واختار بدلاً منها أمي أو كما يسميها جدي (الأجنبية)[٩]، ومنذ ذلك الحدث المزلزل

---

(٧) يا حسافة: يا خسارة.

(٨) الضو: النار.

(٩) الأجنبية: التي ليست من العائلة.

ووالدي يحمل لواء التحرر في العائلة المنغلقة والمتقوقعة على نفسها وسط دوامة اللاءات الرافضة لكل شيء.

وعندما حملت اللواء من بعده كان بداية لدعوة جهرية لنبذ أفكار زرقاء مهترئة نسي الماضي أن يأخذها معه عندما غادر مبتعداً، فوالدي كان يقول رأيه الرافض لأفكارهم بصوت لا يسمعه إلا هو، ولعل أول قرار أصدرته بعد أن توليت قيادت حزب التحرر العائلي هو الإفراج عن المظلومين خلف أسوار القفص الصدري الذين سجنهم القائد السابق، فقد كان والدي لهم أخف الضررين فإما أن يقتلهم أعمامي أو أن يسجنهم والدي. وربما الرابط الوحيد بين دعوتي ودعوة والدي هي الوحدة، فعندما كان رئيساً لحزبنا كنت حينها طفلاً صغيراً وعندما استلمت زمام القيادة كان قد أصبح شيخاً قد حفرت السنين أخاديدها في وجهه وانتصر الزمن عليه فأحنى له ظهره، وما زلت أتذكر تلك العبارة الرنانة التي قد خلّدها تاريخنا العائلي لوالدي حينما قال: (لا بد لشعاع من الحرية أن يخترق الزوايا المظلمة والمعتمة في عقول أقاربنا يا ولدي)، فإذا كانت النوافذ مغلقة والأبواب موصده فكيف للنور أن يخترق سويداء الجدران؟ إتراه ينبت من الأرض أم سيهطل من السماء؟ فالحرية تريد عملاً والأغلال التي كُبلتم بها تحتاج إلى حل.

بعد أن غادر ضيوف تلك الليلة المشؤومة والتي كان الشيخ سعد يتبختر بين نجومها حتى غدا أوحدها، مرتقياً المعالي على عتبات شتائمه، واحتضن الصمت والكلام فناما في سرير من الظلمة وهما يلتحفان الليل، فوجئت بوالدي طارقاً باب غرفتي، فدخل وجلس بالقرب مني وأخذ ينظر إليّ نظرات قد ضيعت طريقها فلا هي سلكت طريق الحيرة ولا هي اتجهت إلى درب الأسى والندم.

والتقت أصعب اللغات وأصدقها فحدثتني نظراتها وهي تقول: سامحني يا ولدي فقد خذلتك في أولى جولات حربك البسوسية ضد تلك التقاليد العتيقة! نعم عاتبني يا بنيّ فأنا سيفك الذي نبا وجوادك الذي كبا. انتهت مسرحية الصمت وخدشها الكلام بصوته عندما أخذني والدي في حضنه ثم بكى:

يا ولدي داري إنك منتب[١٠] مخطي ولكن سامحني وش أسوي[١١] بناس عقولهم متحجرة.

فتدافعت الكلمات عابرة حاجز لساني ولكنها عاثرة في عبراتي:

ما أخطيت يا بوي الله يخليك لي.

وبإحساسة ذنباً يجري في شرايينه:

لا أخطيت وأنا أبوك.

وهو يقبلني بين عيني ويده تمسح على شعري:

وإياك تجاملني وتعلم أنه لو يخطي عليك أحد إنك تنبه لخطاه.

وبتردد وارتباك ونظرات عيني متجهة للأرض:

بس أنت أبوي.

فقاطعني منبهاً:

أنا منيب من الملائكة. أنا بشر أصيب وأخطئ.

فقبلت رأسه ودموع فرحي تسابق حروفي:

---

(١٠) منتب: لست.

(١١) وش اسوي: ماذا أعمل.

أنت أبو ترفع الرأس.

وبت تلك الليلة وقد حُزتُ كل كنوز سليمان وكان أبي هو هذا الكنز.

أب يعتذر! ولمن؟ لابنه!

ولكن في مجتمع الجبارين الذي نعيشه لا بد أن نترحم على مَنْ دفناهم في مقبرة الفضائل، ولو تتجول فيها وتقرأ ما كتب على نُصب القبور لتمنيت أن تكون تحت التراب معهم لا فوقه لتراهم.

٤

في عالم مدرستنا ذات الغرف الضيقة والمبنى غير الصالح للاستعمال الآدمي، والهواء الفاسد حيث تمازجت ذرات مداخن المصنع القريب منا وروائح الصرف الصحي مع قليل من هواء كان صحياً فصار هواء مدرستنا ماركة مسجلة وقد كان يهوّن علينا هذا المصاب إطلالة أستاذنا (علي ربيع) معلم مادة اللغة العربية الذي فتح لي آفاقاً من الاطلاع والمعرفة، بالرغم من أنه مطوع فلقد كان ثوبه اعتلى كعبه قليلاً ورائحة دهن عود مميزة تفوح منه ومسواك يطل برأسه من جيبه وعقال قد زين هامة رأسه.

فتح الباب وأطلّ برأسه وابتسامة مشرقة تحيط بفمه ذي الأسنان اللؤلؤية.

السلام عليكم يا إخوان.

وارتفع صوتنا والسرور يداعب شفاهنا:

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

اتجه إلى السبورة ليكتب الدرس لكنه توقف أمام لوح السبورة وأخذ يقرأ ما قد خطت يد أحد الطلاب بصوت عال:

أبو شنب قاهركم.

الله يلعن أم المدير.

إبن جليعيد خنيث[1].

ثم استدار ناحيتنا وهو ما زال مبتسماً:

يا شباب من الذي كتب هذه العبارات؟!

تجولت نظراتنا في الصف تبحث عن الفاعل وكل واحد منا في قرارة نفسه يتهم فلاناً.

ابتسم مرة أخرى وهو يقول:

يا شباب صاحب الخط الذي على السبورة بسهولة نعثر عليه لو قارنا بين خطوطكم وهذا الخط، ولكنني أريده أن يعتاد الصدق وما دام، هذا رأيه فلماذا يقوله في الظلام؟!

هنا تجرأ شنباوي ورفع يده:

أنا يا أبو ربيع إللي كتبت ها الكلام.

---

(١) خنيث: أي يستخدم لقضاء شهوات الرجال.

تبدلت تعبيرات وجه أبو ربيع وهو يخترق صفوف الطلاب متجهاً إلى آخر الصف حيث مكان (شنباوي) وبدأت لغة التوقعات تدور في أذهاننا، ولكن تلك اللغة توحدت حول أن عقاباً جسدياً سيحدث الآن جارحاً أحاسيس السكينة والهدوء.

وعندما وقف أمام شنباوي مد يده وصافحه:

أشكرك على صدقك.

ثم أضاف بلهجة مؤدبة:

ولكن أتسمح لي بأن أناقشك في هذا التصرف؟!

أخذ شنباوي طرف شماغه ليجفف عرق الخجل الذي امتطى صهوة وجهه:

أ أ أ أ إللي تشوفه يا أستاذ.

وهو يضع يده برفق على كتف شنباوي:

وش بلاك خايف يا حمد؟! ترى ما يقطع الراس إلا إللي ركّبه.

ولأول مرة انتبه إلى أن شنباوي له اسم مثلنا يجوز أن نطلقه عليه ونناديه به.

تشجع حمد:

ما خفت يا أستاذ بس حسيت أني مخطئ.

ابتسم أبو ربيع:

لولا أنك طالب مؤدب لما خجلت وأحسست بخطئك.

استدار أبو ربيع وعاد لمقدمة الصف وهو يقول:

يقول رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام: (عفي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) فما رأيكم يا شباب في أن تسامحه هذه المرة؟!

فرفعت يدي طالباً الإذن بالحديث.

تفضل يا علي.

من شيم الرجال.. العفو عند المقدرة.

فابتسم وقال:

سأعاملك كما أحب أن يعاملني ربي إذا وقفت بين يديه.

فتقدم حمد من الأستاذ محاولاً تقبيل رأسه وأبو ربيع يرده برفق وهو يقول:

يا حبيلك[٢] أنت والمطاوعة إللي مثلك.

فتمتمت بيني وبين نفسي ساخراً:

الزين دايم قليل.

******

كلما ضربت الأيام أطنابها بنا في المدرسة ازدادت إلفة آذاننا لما يحاك حول مولانا الشيخ (أوس بن جليعيد) من كرامات وأساطير. فمنهم من قال إنه من قوة إيمانه استطاع السير على الماء وآخرون أقسموا أنه يد الحق الحاصدة لكل شرور العالم، ولا تزال تائهة في

---

(٢) يا حبيلك: كم أحبك.

ذهني قصة ذلك الرجل الذي أخبره الأطباء بأن أيامه في دنياه قد دنت وتصرمت ولكن صاحب الكرامة دعا له فشفي.. حتى وصل الأمر بغلاة المعجبين به أن حلفوا بأيمان مغلظة أن التراب قد تحول بين يديه إلى ذهب والماء إلى نفط، فهذه الخرافات تضحكني. وأتذكر قصة هذين الرجلين اللذين جاءا إلى إحدى القرى ودفنا حماراً وبنيا حول قبره مسجداً وزعما أنه ضريح لأحد أولياء الله الصالحين وأنهما خدام وسدنة هذا الضريح فأخذ الجهال والدراويش وضعاف النفوس يفدون إلى هذا المكان للفوز ببركة من ولي الله المزعوم السيد حمار، وفي إحدى المرات اختلف الرجلان حول اقتسام أموال الضريح فقال أحدهما:

فلنحتكم إلى ولي الله النائم في هذا القبر.

فرد الآخر: عيب ما إحنا دافنينه سوا.

وكلما سمعت عن كراماته تكونت داخلي كرة كبيرة من ثلج الكراهية نحو تصرفاته التي جعلته صورة سالبة للدين.

فقد تساءل ذات مرة عندما كان يدرسنا (مادة الثقافة الإسلامية):

أتدرون ما الغزو الفكري لبلادنا؟!

فأجبناه بالنفي، فبرزت عروق جبهته وصار لونه أحمر متورداً، وضحك العرق وصارت حباته تحاول عبثاً التشبث بأطراف الحياة في لحيته:

إنهم يغزوننا في عقولنا وفي شتى مشارب حياتنا.

فمر سؤال طائش من أحد المعجبين:

وشلون يا شيخ؟

أومضت عيناه بلمحة عبقرية نائمة:

أرسلوا لنا البيبسي والكولا ليكونا بديلاً عن الماء والله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز...

وأخذ يتلفت في الصف باحثاً عن طالب أو طاولة ليجيبه.

هاه.. مَنْ يعرف يا شباب الإسلام؟!

ابتسم وعرقه يلتقي لينتهي مع طرف غترته:

لا تثريب عليكم.

ثم أضاف:

يقول تعالى: (وجعلنا من الماء كل شيء حي).

فقاطعته صرخت جهادية إعجابية مصعبية:

الله أكبر.

فارتبكت وظننت أني قد تهت بين الأزمنة فوصلت إلى معركة حطين أو الزلاقة.

فازداد حماسة:

حتى في أفلام الكارتون.. أتدرون ماذا يقصدون بـ(بوباي)؟! أو بذلك الرجل الملتحي الذي يطارد زوجته؟

فاندفع حبيب القلب مصعب بعاطفة لا عقلية وبجهل قائلاً: يريدون تشويه صورة الإسلام والملتزمين.

فتحرك ثعباني يريد لدغ ابن جليعيد:

الملتزمون من اليهود يربون لحاهم.

فاقترب مني مسرعاً وبغضب المغرور:

تكذبني يا بزر[٣].

ارتبكت وتلعثمت وبحثت عن مخرج فكأنما إلهام سماوي أسقط في قلبي:

لا. لا ولكنني أريد أن أستزيد من علمك.

فابتسم وتعاظم وانتفخ غروراً وهزّ رأسه:

إذا كان كذلك فلا بأس.

ثم أشار بيده إليّ.

سؤال جيد، ينم عن حب لهذا الدين وهكذا هم الرجال.

كل ذلك الثناء حصلت عليه لأنني أشبعت غرور نفسه الوضيعة.

وانتبهت من تأملاتي وإذا بابن جليعيد مستمراً في الثناء عليّ:

وأما بالنسبة لسؤال الأخ علي، فإجابته كالتالي:

لقد قرأت لقاءً مع الكافر الذي رسم هذا الفيلم الكارتوني وقال بالحرف الواحد إنني عندما رسمت الرجل الملتحي ماجناً وزير نساء كنت أقصد أن هذه هي أخلاق المسلمين وأن هذا الرجل هو النموذج الصالح فيهم.

---

(٣) يا بزر: كلمة تحقير يقصد بها الطفل.

فصرخ مصعب صرخة ظننت معها أنني صرت سكران:

الله أكبر. العزة لنا. فليخسأ الكافرون.

اختفت معالم وجه ابن جليعيد واجتمعت تفاصيله في ثغره:

أسأل الله يا مصعب أن يمد في عمري حتى أراك قائداً لجيوش الإسلام وهي تحرر أقصانا من دنس اليهود.

ونحن صامتون لا ندري ما الذي يجري أمامنا.

وارتفعت زمجرة رعدية جليعيدية قاصفة لنا:

ما تقولون آمين وألا تغارون من مصعب!

ثم رفع إبهامه مهدداً برذاذ مسبّاته:

والله إنكم كلاب لابسة ثياباً(٤).

وبهلع المجبر اختلطت فيه الطبقات الصوتية والنغمات الحنجرية:

آمين.. آمين.. آمين.

وبعد عدة أسابيع انقطع ابن جليعيد عن المدرسة وسرت شائعات عنه كما سرت عن كراماته.

ابن جليعيد نقل إلى مدرسة ثانية.

بل ذهب لقيادة المجاهدين في أحد أصقاع الأرض.

لا لا بل ....

ابن جليعيد ....

---

(٤) لابسة ثياباً: مرتدية ثياباً.

واستغربت أن بعض أتباعه الجهال لم يقولوا رفعه الله إليه، وكل تلك القصص علاها غبار الزمن وداستها عجلة الأيام فغدا معها ابن جليعيد أسطورة تُروى عنه الحكايات والكرامات كما تُروى عن السيد البدوي والجيلاني، فمساكين أولئك الأغبياء غرتهم مظاهر تدين خداعة قد تقودهم إلى تيه قد لا يعودون منه أبداً.

٥

تكررت صورة شنباوي متوسداً جفني وملتحفاً رمشي وهو يقول:

خايف على رفيقك أيمن من العروص فأزين الطوع[1].

ومع شيء من إلحاحات عمر ورشّة قليلة من الفضول جعلت انضممنا ــ أنا وأيمن ــ لمكتبة أبو إدريس النقّاش ــ أمراً واقعاً:

أبو حسين..

نعم يا أيمن.

أخذ ينظر إليّ وقد وشت به عيناه الجميلتان وأخذ يشير بيده وكأنها مجنون يتراقص:

(١) أزين الطوع: اقصد وتظاهر بأنك مطوع.

وش ذا المكتبة؟! ومن هو أبو سعد السباك؟!

ابتسمتُ:

آه قصدك أبو إدريس النقاش؟!

فتجاهل تعليقي وأضاف:

وش وداك يم المطاوعة لا هم من ثوبك ولا أنت من ثوبهم!

ركزت إنسان عيني عليه وتنهدت:

أنت.

مرت ثوان صامته وكأن المكان قد فقد الحياة قبل أن ينتبه أيمن إلى أن الصمت قد خدعه وأعاد الروح إلينا:

وش دخلني أنا في الموضوع وأنت عارف أني ما أحب من المطاوعة إلا عمر.

فحاولت المناورة وامتصاص طوفان حماسته وأنا أهدئه:

إصبر اصبر.. كم قاعد في بطن أمك؟!

وش دخل أمي في النقَّاش.

ما أخسّ من تجربه[٢] وأنا أخوك.

أدار ظهره وهو يهم بالمغادرة وملوّحاً بيده ليطرد خيال المستقبل:

جربهم لحالك.

وضعت يدي على كتفه وهززتها بشدة:

---

(٢) أخس من تجربة: أقل من تجربة.

تراي أبتحمل المطاوعة وغثاهم عشانك.

استدار أيمن والتقت الأعين ونام الكلام.

******

عندما دخلت لأول مرة مكتبة (أبو إدريس) تقابلت داخلي مشاعر متماوجة كانت عبارة عن غرفة صغيرة ملحقة بأحد الجوامع قد توسطتها سجادة للجلوس على الأرض تناثرت عليها بقايا من حبات الأرزّ البخاري وجبتهم المفضلة، وانتصبت في أحد جوانبها كتب ابن تيمية وابن القيم وسيد قطب وابن كثير ومؤلفين آخرين قد افترشوا التراب والتحفوه غطاءً. وتسيد الهدوء المكان.

عدلوا غتركم أنت وأيمن

وش بلاك تحاكينا بصوت واطي؟!

إللي جاي هذا الشيخ أبو صهيب رئيس المكتبة

نظرة إلى القادم نحونا وبلا مبالاة:

طيب وش أسوي به(٣)؟!

لاحت بوادر عتب من عمر:

احترام الكبير واجب.

فقاطعته معترضاً:

احترام مهوب خوف.

(٣) وش أسوي به: ماذا أعمل به.

بادرنا أبو صهيب بالتحية:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وعليكم السلام ورحمة الله.

وأخذ يتفحصنا بنظراته قبل أن يوجه حديثه إلى عمر:

ما عرفتنا بالإخوان يا عمر؟

ارتبك وكأنه قد نسي واجباً مقدساً:

لقد أنساني الشيطان يا شيخ.

تنهد الشيخ:

الله يكفينا[٤] شره وإياكم.

فجاملته:

الله يسمع منك يا شيخ.

وعاد عمر إلى وضعه الطبيعي وهو يبادر بتعريفنا:

هذا الأخ علي القريناوي.

وهو يزوي شفتيه:

ونعم.

وهذا الأخ أيمن المصفوق.

بدت ابتسامة خفيفة:

---

(٤) يكفينا: يقينا.

ونعم.

ثم أضاف متسائلاً:

بقي هناك عضو جديد، ألم ينضم عن طريقك يا عمر؟!

لعلك تقصد الأخ محمد الغطريفي؟

ثم أردف موضحاً:

هذا انضم عن طريق الأخ أبو جلنط.

فرددت مستغرباً:

أبو جلنط.. أبو جلنط قضت[٥] الأسامي.

فجاوبني أيمن ساخراً:

وأكيد فيه أبو باب وأبو مكينة.

لاحت بوادر عدم الرضا على وجه أبي صهيب وإن كانت كلماته تنفس عن ثورات غضبه:

الأخ أبو جلنط، هذا اسمه أيام السفه والطيش عندما كان من أكبر مفحطي[٦] البلد والآن بحمد الله من الدعاة إلى الله.

أحسست لحظتها أن سخريتي غير مبررة واتضحت عليَّ أمارات الخجل مع عبارات الأسف:

آسف يا شيخ ما قصدي طنازة[٧].

---

(٥) قضت الأسامي: انتهت الأسامي.

(٦) التفحيط: الاستعراض بالسيارة بطريقة مفرطة.

(٧) طنازة: سخرية

ما صار إلا الخير يا علي!

******

بعد ذلك الموقف أحسست أني قد دخلت عالماً ليس لأمثالي فإما أن يلفظني أو يقتلني، وعندها أكون قرباناً قد نُحر في غير حينه، وحاولت أن أتعلم فن التكيف مع بيئتي الجديدة أو حتى فن البقاء وخاصة بعد أن رأيت محمد الغطريفي وآمنت بأن كل عالم لا يصح دون أن تكون فيه نسمة من جمال تهب عليه فتنعش قلوب ساكنيه، وبالرغم مما بذلت من جهود لطمس صورته من خيالي لكنها هربت واختبأت خلف أجفاني وانعكست على تضاريسي.

علي.. علي.. علي

انتبهت ويد أيمن تهزني برفق:

وش عندك تهوجس؟

بدأ ارتباكي ولاح رأس كذبتي:

هاه...... مشغلني اختبار الرياضيات.

غمزني بعينه ضاحكاً:

إلا ذابحك دلع[8] ولد الغطريفي.

فأذعنت للحقيقة:

آه جسمه.. وشكله.. ووجهه وكله على بعضه حلو.

أف.. أف أثرك رايح[9] معه وطي[10].

---

(٨) ذابحك دلع: كناية عن الإعجاب.

(٩) أثرك رايح: أصلك متولع.

(١٠) وطي: يقصد بها عظم الأمر.

سهمت عيناي وحلّقت بعيداً:

بذمتك يا أيمن مهوب دلعه يدوخ!

علي تسمح لي بسؤال؟!

تفضل.

أنت حبيب وإلا قضّاي لزوم.

ليه؟

ركز بصره عليّ ليرى مدى تأثير ما سيقوله على مشاعري:

بلا الولد ما يقصر(١١).

تلبستني جنون العشق وسيطر على لساني وحتى غضبي:

أنت تكذب.. عشان هو أحلى منك وتغار منه.

أرسل لي جمال عينيه تأكيد صدقه قبل أن يقول:

الله يسامحك.. ولكنه عرض نفسه عليّ ورفضت.

عاودتني حالة الجنون مرة أخرى:

شكلك أنت اللي عرضت نفسك عليه يا مبسبس(١٢)!

عندما أفقت من حالتي تلك وجدت يداً قد عانقت خدي ولفحتني أنفاس قد امتلأت بعبق من الحقد والكراهية وصوت خطوات كأنها تدوسني وهي تبتعد.

******

---

(١١) ما يقصر: ما يرفض طلباً للعروض.

(١٢) مبسبس: من يبحث عن الناس ليمارسوا معه الشذوذ.

تسلل الملل إلى نفسي وغدا دوراني في فلك المكتبة أمراً رتيباً له صوت من الكآبة. درس قرآن فمذاكرة فوجبة بخاري فالعودة إلى البيت. لم تعد أحاديث أبي صهيب عن الجهاد وضعف الأمة تثيرني، أو تلك التقسيمات الغبية السلفية أو الإخوانية أو الجهادية إلى آخره من تلك الخزعبلات الناقدة للحياة تستفزني، حتى الغيرة لم أعد أستخدمها إذا ما أحد حاول التقرب من (آسرتي الساهمة محمد الغطريفي) وإن كان لذلك سبب أجهله.

أترى لأني خسرت أيمن بسببه أو لهيامه عشقاً بأبي جانط.. حقيقة واحدة تأكدت لي هي أن ذلك العالم استنفد أغراضه لدي ولزاماً عليّ أن أحزم حقائبي وأغادره، فسبب دخولي انعدم وإذا بي مسافر بلا زاد ولا وجهة ولا هوية أو عنوان، عدت من عالمي الخاص على صوت ما أعذبه عندي:

من عند الباب؟!

شعور السعادة والارتباك تواءما في تلك اللحظة.

افتح يا أيمن أنا علي.

فتح الباب وأطلت منه يداه وهما مفتوحتان لاحتضاني، وجذبتني قوة مغناطيسية إلى صدره مع سيل من الدموع والاعتذارات والقبلات:

علي، سامحني يوم مديت يدي عليك(١٣).

---

(١٣) يوم مديت يدي عليك: عندما ضربتك.

وقطرات دموعي تمسح ذنبي:

أنا إللي أخطيت عليك.

صدقني يا علي كنت أتوقع أنك الوحيد بهل العالم اللي ما يمكن يشك فيني.

ونزلت عليه الذاكرة فجأة قبل أن يقول:

أثرنا بالشارع. تفضل. تفضل يا أبو حسين.

وقفت عند مدخل المنزل ورفعت يدي معترضاً:

ما راح أدخل إلا لحد ما تطمني وتقول إنك سامحتني.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة:

أحد في الدنيا يزعل على روحه.

حاولتُ إطالة وقت وصولنا إلى جراح خلافاتنا الماضية.

علي وش بلاك مستحي[١٤]؟!

نسيت حرارة فنجان القهوة الذي بيدي ولم تستطع برودة لساني أن تصمد أمام سخونة الموقف.

حاسس إني.. !!!!!

وضع يدي بين راحتيه فاجتاح الدفء جسدي ولساني:

إني خذلتك في وقت أنت محتاجني فيه.

نظر إليّ بحدة وهو يعبث بمسبحة في يده:

---

(١٤) مستحي: خجول.

شف يا علي، لولا غلاك عندي كان ما سامحتك.

نامت حدة وجهه واستيقظت طيبته ورفع رأسه لينظر إلى سقف الغرفة خشية أن أسترق النظر لداخله فأطلع على ما به من آسى:

آه يا أبو حسين لو تدري وش صار.

لم أستطع كبح جماح رغبتي ولكني لا أعلم أرغبة مساعدته وحمل همه أم رغبة الفضول ومعرفة أسرار الناس:

عسى ما شر يا الغالي؟

أغمض عينيه كمن لا يريد أن يرى واقعاً مريراً أمامه:

تذكر يوم طلعنا في معسكر مع المكتبة؟

هززت رأسي موافقاً:

إيه أذكر.

من بداية المعسكر وأنا عندي إحساس داخلي بأن نظرات أبو جانط ناحيتي فيها شيء ما أدري شهوة أو عشق ولكنها نظرات غريبة لا تليق بشخص مثله، وبصراحة خفت من ذيك[١٥] النظرات ويوم جينا نسبح بدأ يمازحني في الماء وأصبح جسده قريباً من جسدي وأحسست بحرارة شهوته تصل إليّ حتى غطت المكان فخيّل إليّ أن الماء حار، فخرجت من المسبح وأنا محتار هل أعلم أبو صهيب بشكوكي واللا علي، ولكني أنا وهو متزاعلين، وإلا أبلعها وأسكت.

ـ طيب ليه ما علمت عمر؟

---

(١٥) ذيك: تلك.

لم يبال لمقاطعتي وكأن الأمر لا يعنيه.

فقلت: أبعلم بألّلي في خاطري لعمر.

وش سوى عمر يوم علمته؟

قال لي، إنه يشك في تصرفات أبي جلنط وخاصة مع ولد الغطريفي، ونصحني بالصبر لأنني لو بلغت أبو صهيب لنصحني بألا أسيء الظن في أخي المسلم.

قرأ أيمن اللهفة في عينيَّ وأنا أسأله:

وبعدها وش صار؟!

صار الشق والبعج[١٦].

كيف؟!

في آخر الليل وكلكم (نايمين) وأنا كنت متظاهراً بالنوم وطالباً وده رغم العداوة الناشئة بيننا، رأيت أبو جلنط ينهض من فراشه وهو يسرق خطواته سرقة.. وتبعه بعد قليل الغطريفي فاستبد بي حب الاستطلاع وقهر خوفي وأرقي فتبعتهما وإذا بهما في إحدى الغرف المغلقة وتصدر من داخلها أصوات امرأة غارقة في اللذة الجنسية. وتلصصت واسترقت النظر إلى الداخل فإذا بي أرى ملابس متناثرة في أرجائها فلم أدر ما الذي جعلني أتصبب عرقاً وأفر جرياً إلى فراشي، أهو الخوف من أن يعلم أبو جلنط بما رأيت أم خوف من أن يصيبني ما أصاب ذلك المتأنث.

---

(١٦) صار الشق والبعج: حدوث أمر عظيم.

انتبه أيمن لما اجتاحني من أسى فقال محاولاً إعادتي إلى طبيعتي:

آسف يا علي إن كان جرحت مشاعرك.

فجاملته وأنا أسرق ابتسامة من ثورة غضبي:

مثل هذولا[١٧] الحب فيهم خسارة.

صدقني يا علي أنه هو إللي خسرك مو أنت إللي خسرته.

أشحت بيدي:

يا رجّال ما يهم.

حاول الصمت أن يسيطر على مقاليد الجو ولكنني تدخلت سريعاً:

كمّل يا أيمن وبعدين؟

في الصباح وأنا قاعد أتأمل جمال الشمس لحظة إشراقها سمعت صوتاً خلفي يقول:

شمس بيني وبينك.

فتملكني خوف مما سيحدث واستطعت بعد مشقة أن أسأله:

وش تبي؟!

جلس إلى جواري:

لا تخاف منيب مسوي لك شيء.

حاولت أن أغادر فضغط على يدي بقوة ليستبقيني:

أقعد لا تفضحنا.

---

(١٧) هذولا: هؤلاء.

امتثلت لأمره بلا مقاومة.

شفت شيء البارح يا أيمن.

ارتبكت.. تلعثمت وخفت.

هاه.. لا ما شفت شيء.

ألقى عليّ نظرة باردة وكأنه ملك الموت:

تكذب يا أيمن.

حاولت إنهاء جلسة الرعب تلك:

تبغى مني شيء وإلا أمشي؟

مد يده وحركها ملامساً وجهي ونزلت حتى وصلت فخذي وأنا مسلوب الإرادة وكأني مشلول ونظرات الشهوة مع حروف العشق وهو يقول:

أبخلّي ولد الغطريفي خاتم في إصبعك وتستخدمه مثل حرمتك[١٨] بس تسلمني نفسك.

وش تقصد؟!

يعني نسوي زي إللي شفت البارحة.

وإذا رفضت وش بيصير؟

تحولت نظرات العشق إلى قهر واستعباد:

إللي ما يجي برضاه يجي غصب عنه.

---

(١٨) حرمتك: زوجتك.

لملمت شتات نفسي ونجحت في السيطرة على أعصابي فاستطعت النهوض والمغادرة:

عن إذنك يا أبا جلنط.

ضغط على حرف عباراته وكأنها رسالة تهديد:

فكّر.. فكّر.

وبعدها أحسست أن أفضل طريقة للمواجهة هي الهروب. ومن يومها وأنا تارك مكتبة النقّاش.

ـ أنا نفسي يا أيمن وأنا بالمكتبة كنت حاسس أني نجم خارج فلكه ومداره.

استأذن أيمن لمغادرة مجلس الرجال:

عن إذنك يا علي أبجيب غرض من داخل ودي أوريك إياه.

تفضل.

لفت نظري التضاد الغريب في ألوان مجالسهم. فالستائر بنية والكراسي خضراء فاقعة والسجاد أحمر مصفرّ. فمن الصعب أن تكون هذه ذائقة لونية لشخص بذاته، ولم أكن مستغرباً تلك الخلطة العجيبة من الألوان، فوالدته من جنوب السعودية الدائمة الاخضرار والذاكرة اللونية التي يملكونها لا تختزن سوى تلك العائلة اللونية بعكس منزلنا ذي اللون البني حتى أصبح هذا اللون حبيبنا دون أن نحس فهو مخزوننا اللوني إذ إن والدي من قرية قرب العاصمة ذات الطبيعة الصحراوية.

تقدم مني أيمن وهو يمد ظرفاً:

عسى ما تأخرت.

لا.

أخذتها منه:

وش هذا؟

جلس وهو يبتسم:

هذي لها قصة فأنت تبي تقرأ أو تسمع أول؟!

وضعت الرسالة جانباً:

لا، أسمع.

هذا محمد الغطريفي أرسل لي هالرسالة.

لم أستطع السيطرة على مشاعري:

وش بالرسالة....؟!

اقراها وأنت تعرف.

فتحت الرسالة وبدأت أقرأ..

حبيبي أيمن

يمكن تستغرب ليه هالرسالة! بصراحة أنا أحبك ومعجب فيك ومستعد أسوي أي شي تبغاه مني. وأنت تعرف أن الناس تنتظر إشارة مني. وتركتهم وجيتك

المتيم

حمودي

٦

وضعت قلمي وفارقت أوراقي ورفعت الراية البيضاء وأدرت ظهري راحلاً وأنا مكسور الوجدان عن عالم الكتابة الساحر.

ـ توقف يا علي.

التفتُ فلم أرَ أحداً.

لعلها خيالات وتهيؤات.

فناداني الصوت نفسه من المصدر ذاته:

يا علي انظر إليّ هنا على سطح المكتب.

فنظرت فلم أجد سوى أوراقي وقلمي فتوجست خيفة وناديتُ:

أنت يا صاحب الصوت.. أأنت من الإنس أم من الجن؟!

فصرخ بي:

أنا صدقك: أنا سيفك: أنا قوتك: أنا كاتم أسرارك: أنا أوفى أصدقائك. أنا قلمك.

بذهول وريبة:

قلمي يحدثني؟!!

نعم قلمك يحدثك.

ثم أضاف:

لقد أنطقني الذي أنطق كل شيء.

وبذلٍّ وخضوع:

سبحانه ما أعظمه!

وببكاء سالت منه دموعه الحبرية القاتمة:

لماذا تريد أن ترحل وتتركنا؟! إذا كنت سترحل وحدك ألا نستحق ولو كلمة (وداعاً)!

أأنا في حقيقة أم خيال بل ربما انضممت إلى عالم المجانين رسمياً، وما به عالمهم؟!

فكل العظماء جُنُّوا من انحطاطات عصورهم، لا لا لا بل لتقدم السن أحكامه، فالبصر يضعف والسمع يتناقص، ومع هذا لن أركن إلى هذه التبريرات وسأرد على قلمي حتى ولو قيل عني مجنون.

التقطته من على سطح المكتب ووضعته في راحتي وبحنان عاشق ضممت عليه أصابعي وقبلته في رأسه:

سأرحل لأني لا أستطيع الصمود.

قاطعني:

تصمد.. كيف؟!

أصمد في سبيل قضيتي.

أليست قضيتنا جميعاً أنا وأنت؟

بلى.

فلماذا تتخلى عنها؟!

وبمحاولة إقناع لهذا الصديق العنيد:

صدقني ليس عندي ما أكتبه.

فابتسم حتى سال الحبر من فمه وهو يضرب على صدره:

هذه خلّها عليّ.

مستغرباً.

وشلون؟

أبكتب لحد ما يفتح الله عليك.

ثم أضاف بتردد.

إلا إذا..

فقاطعته:

إلا إذا ويش؟

وهو يغمز بطرف عينيه:

يمكن فيه سبب ثان ولا ودك تقوله؟

مؤكداً:

لا والله هذا السبب.

وهو يمازحني:

أجل خلها عندي وأنا أبو هندي[١].

وكنت ظامياً قد وجد من يقيه في سجل الأحياء

ظنك كذا.

وبتوسل مشوب بالأمل:

قد خذلتك يا علي؟!

ضممته إلى صدري وبسرور:

لا.. أنت نِعْمَ الصديق.

وهو يشير إلى الأوراق:

إذن أرجوك ضعني عند أوراقنا.

ووضعته وابتسامة امتنان قد نشرت شعاعها على وجهي وعبارات شكر أرسلتها عيناي. وبعد أن مد رجليه دعاني قائلاً:

اقترب لأخبرك بقصة أخبرني بها جدي (وترمان) فهو يقول:

عندما كنت في إحدى أسواق الرياض المشهورة وموضوعاً على إحدى (استاندات) العرض وبجواري صديقي العزيز (باركر)، فإذا بشاب يدخل السوق وارتفعت أصوات تذكر الله وتخالطها شهقات

---

(١) مثل يعني: أنا أتحمل النتيجة.

نسائية متعجبة من فرط جماله ووسامته، واتجه إلينا وأخذ يتفحصنا فاقتربت منه إحدى الغانيات التي تلبس من الثياب ما يستفز فحولة الحجر وحاولت التقرب منه ولفْت انتباهه قائلة بغنج ودلال:

لو سمحت أخوي أي الأقلام هذي أجمل؟!

بلا مبالاة وهو يتفحصنا:

كل إنسان وذوقه.

وبتلميح تصريحي:

بس أكيد أنت ذوقك حلو.

ارتبك وحاول المقاومة بالابتعاد:

الله يسلمك.

فوضعت يدها على زنده والتصقت به لإشعال الحرائق في جسده وهمست في أذنه:

ممكن آخذ رقم موبايلك؟

وبتردد وارتباك أخفيا ملامحه بحمرة من الخجل وسيل من العرق:

آسف ما معي موبايل.

والتصقت به أكثر حتى أن أنفاسها قد ألهبتنا نحن جمهور المتفرجين وبدلع:

أبغى أي وسيلة اتصال بك.

وضاعت، بل انتهت، وماتت جميع عبارات هذا الشاب واحتوى وجهه على جميع الألوان ذات العلاقة بالموت، وتنكّر في هيئة الموتى من صرخة ذلك الشاب الملتحي.

ما تخاف ربك؟ قاعد تتحرش ببنات الناس؟

وبرعب خجول:

أأأأ أنا؟

وهو يتقدم نحوه:

إيه أنت.

ثم يضيف رافعاً صوته:

فيه غيرك ممكن يصير راعي هالحركات؟

فحاول أن يدافع عن نفسه:

لا تظلمني يا شيخ الله يجزاك خير.

فارتفع صوت أحد الزبائن معلقاً:

(وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)

فأمسك بالشاب من ذراعه وهو يجره خارج السوق:

هالحين في الهيئة إذا أخذت كم عصا عرفت أن الله حق[٢].

فيصرخ بقهر:

والله هي اللي متحرشة فيني.

فيعلو صوت زبون آخر:

خف ربك يا ولد ولا تقذف المؤمنات الغافلات.

---

(٢) عرفت أن الله حق: آمنت بالحقيقة.

واستجمع الشاب قواه:

لابسة ضيق وشفاف وتحاول تغريني ولا تبغاني انفتن!

فرد الشاب الملتحي ساخراً:

مركز الهيئة بيخليك تحرم تطب[٣] هالمحلات.

ويلتفت الشاب نحو المتجمهرين باكياً:

أقسم بالله منيب راعي هالأمور وهي حاولت تتحرش بي.

ثم يضيف برجاء:

ليه ما تصدقوني؟! يعني أنا عندي شهوة وهي ما عندها؟!

ثم يوضح:

هذا ذنب أهلها اللي خلوها[٤] تطلع[٥] بهالملابس في الأسواق.

قاطعه الشاب الملتحي وهو يجره بمساعدة أحد الحضور:

محاضرات الأخلاق والمُثل خلها عند أهلك.

وباهتمام وتفاعل:

وجدُّك يا قلمي العزيز لماذا لم يتكلم ويصرخ بالحقيقة؟!

وبابتسامة تريح القلب:

نسيت أن جدي وباركر صناعة غربية؟!

---

(٣) تطب: تأتي.

(٤) خلّوها: تركوها.

(٥) تطلع: تخرج.

فقاطعته:

الحق ليس له وطن!

وبهدوء وتعقل:

سيتهمان بأنهما يحاولان نشر الفجور في المجتمع المسلم وتشويه صورة الدين.

فأوضحت:

الإسلام دين سماوي متكامل ولكن هناك فئة من المسلمين تشوه صورته لعدم إدراكهم تغييرات الزمان والمكان.

فقاطعني ضاحكاً:

العقول الله اللي يحطها.

٧

ذهبت فرقة (ثلاثي أضواء المسرح) كما يسمينا والدي لقضاء عدة أيام في شاليه يمتلكه عمي على شاطئ (نصف القمر) بالدمام، وكان لوالدي دور كبير في إقناع أهل عمر بالموافقة على ذهابه إلى هذه المغامرة.

استلقيت أنا وأيمن على الشاطئ في ليلة باسمة القمر وبالقرب منه نجمات حسان كل واحدة منهن تطلب وده ووصاله.

وهو ينظر إليهن كعاشق مستهام:

متى يجي اليوم اللي تزين فيه ذا النجوم كتفي؟!

مشجعاً له:

شد حيلك في دراستك وبيسهل الله أمرك.

بألم المحتار وحيرة الشارد وآهة تدك الجبال:

أحياناً الظروف تكون ضدك وتقهرك.

التفتُ إليه مطمئناً:

أنت أحسن من غيرك.

خرجت تنهيدة من صدره كادت حرارتها أن تبخر البحر:

بلاك[١] ما شفت إللي أنا شايفه.

تعدلت في جلستي وباهتمام:

وشلون؟!

مسح خده بيده استعداداً لفيضانات دمعية:

أسرة تمارس فيها جميع أنواع الديكتاتورية وأب سياسته القمع والضرب والتهديد والبخل.

حاولت مساعدته في إزاحة جبال من الهم جاثمة على قلبه:

هذي حال الدنيا وأنا أخوك.

نظر اليّ وسبقت دمعته حرفه:

ودي أحس أن عندي أب.

واعتصر الحزن قلبي:

أنا أخوك وأبوي أبوك.

تمازجت عباراته ببكائه فغدت كتلة متماسكة:

ما تقصرون.

---

(١) بلاك: لأنك.

وأضاف بعبرات تؤلم سكون الليل وتجرح هدوء الموج:

بس أبغى عطف وحنان من أبوي.. وإلا ظنك أن قلبه حجر؟

ابتسمت مشجعاً:

عنده قلب كبير ويحبك بس أنت إللي حساس زيادة.

أخذ كومة من رمال الشاطئ بيده وأخذ يعتصرها انتقاماً لظروفه، وبقهر:

أبغى أعيش زى الناس وما لقيت إللي ينقصني إلا عند الشباب.

وصاروا يتلاعبون بي.. أعطيهم المتعة وهم يعطوني الفلوس وشوية حنان.

وأنا أحاول التخفيف عنه:

طوينا صفحة الماضي وتبنا.

حاول أن يحطم جزئيات ذاكرته انتقاماً مما تحويه من ذكريات سوداء:

صدقني يا علي قاومتهم ولكنهم أخذوا ما يبغون بالقوة، وغديت بين نار الفضيحة ولذة المتعة والمال.

جعلت صدري له عالماً وتعانقت يداي خلف ظهره:

عارف يا أيمن إنك ضحية للظروف، وصدقني أنا لو مكانك سويت مثلك.

غدت لغة الحزن سيدة للمكان وأيدتها الدموع:

داري إنك تقول هالكلام تواسيني به ولكن لو نسيت الناس ظنك بينسون؟!

كنت أكثر من اكتوى بألسنة الناس، ولهذا وجدت نفسي أقاطعه بعصبية:

آه من الناس! حتى في المحبة يكذبون.

باستغراب:

وش تقصد يا أبو حسين؟!

الناس يا أيمن حتى لو حبوك فهم يكذبون.

تقصد أن ما عليّ من كلام الناس؟

استغلت ابتسامةٌ غفلة من الكآبة فزارت المكان.

بالضبط يا أيمن. أنت شد حيلك وحقق أحلامك وثق ثقة تامة أن الناس بيصيرون خواتم بأصابعك.

بقهر:

آخ لو أن أبوي وزير أو ملياردير، كان بصير أنا أحسن واحد.

وبمحاولة مني لشحذ همته:

النجاح ما يليق إلا بك.

بانت خيوط ابتسامة عليه:

الله لا يحرمني منك أنت وعمر، فلولاكم لكنت في ضلالي القديم.

أيمن.. علي يا الله الصلاة. كان هذا صوت عمر يدعونا لصلاة الفجر.

غريب ذلك المدعو (عمر)، ما أنت تراه حتى ترى الإسلام دماً ولحماً، فهل تخيلت ديناً يمشي على رجليه. لقد وهبه الله محبة

الناس فيا ليتها كانت خلطة كيميائية تصنع في بلاد الغرب لكنت اشتريتها. فعمر كما في أوراق الحكومة، أو الساحر كما يداعبه أيمن أو الإسلام كما أعتقد أنا.. كلها أسماء لشخص واحد استطاع في تلك الرحلة أن يخلق عالماً من الحب والسلام في جميع الشاليهات، فما زالت متشبثة في أطراف مخيلتي تلك الحرب التي كادت تنشب بين عائلتين تقطنان شاليهين متجاورين بالقرب منا، فقد حاول رب الأسرة الأولى ضرب مراهق من العائلة الأخرى وقد وصل إلى حالة هيجان هذياني وهو يردد:

الشرف.. العرض.. شعرة وجهي[٢].. سمعتي..

وبسبب تلك التصرفات الهوجاء اجتاحت موجة من التوتر وصل مداها شاليهنا وألغيت جميع الأخلاقيات والإنسانيات وحتى شريعة الغاب توقف العمل بها لإشعار آخر، فصرنا غابة بلا شرائع. وبعد هدوء الأوضاع نسبياً قام ساحرنا بمحاولة تقريب وجهات النظر بين الأسرتين. اصطحبنا إلى شاليه إحدى العائلتين ونادى بصوت جهوري:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فجاءنا صوت من داخل الشاليه:

وعليكم السلام.

ثم أطل علينا من الباب وبترحاب بالغ:

---

(٢) شعرة وجهي: كناية عن عظم الأمر.

يا هلا.. حي الله من جانا.. تفضلوا عين فراش وعين لحاف[٣].

جلست في الجهة المقابلة لرب الأسرة وعمر لأنني أحب قراءة تعبيرات الوجوه فأحياناً تشي بما تكنّه الأنفس ويكذبه اللسان.

التفت إلينا أبو صالح وهو يأخذ مكانه مردداً عبارات الترحيب:

يا هلا حي الله من جانا.

فرد عمر بتلقائية:

الله يحييك.

وهو يضرب على فخذ عمر:

حي الله الشيخ عمر.

وبابتسامة وقور:

الله يحييك يا أبا صالح.

وهو ينهض مستأذناً:

عن إذنكم أبروح أجيب القهوة.

دقائق الانتظار مملة وطويلة فهل ستستمر العبارات الترحيبية الباسمة أم ستحل مكانها قذائف سِباب وشتائم عباسة قد يصل مداها إلى الشاليه المجاور؟!

بدد العم أبو صالح كل ذلك وهو يدخل حاملاً القهوة:

هذي والله الساعة اللي كنها عيد.

---

(٣) عين فراش وعين لحاف: مسكنكم عيوننا.

رد عمر بابتسامة هادئة:

العيد شوفتك يا عم أبو صالح.

أردت أن آخذ الدلة من أبي صالح فرفض.

بدأ عمر بتردد مشوب بشيء من الحذر:

الحقيقة يا عم أبو صالح حنا قاصدينك في خدمة وما تبيك تردنا[٤]؟!

وبنخوة عربية علاها غبار الزمن ولم تعد توجد سوى في عوالم التاريخ وهو يدق بيده على صدره:

أبشروا بألّلي تبونه[٥].

بدا الارتياح على وجه عمر وارتخت عضلات وجهه المشدودة وتجرأ:

حنا يا عم ما نبغى غير سلامتك! ولكننا استغربنا تصرفك مع ذاك المراهق.

انتفضت يد أبي صالح الممسكة فنجان القهوة وتحول وجهه إلى إشارة مرور بها ألوان عدة، وبغضب:

هذا شرفي يا عمر والواحد ما يساوم على شرفه.

محاولاً تهدئة ثورته:

يبّض الله[٦] وجهك يا عم واللي ما يغار على عرضه ديوث[٧].

---

(٤) نبيك تردنا: ترجعنا خائبين.

(٥) تبونه: تريدونه.

(٦) يبّض الله وجهك: صار أبيضاً من العبادة.

(٧) ديوث: الذي لا يغار على محارمه.

مرت رياح الغضب بسلام.

ـ أجل وش قصدك يا ولدي؟

أنت رجل مؤمن يا عم.

وهو ينظر إلى الأرض ويعبث بفنجانه:

ونعم بالله.

وأضاف بأسلوب يسكن القلب:

والله سبحانه وتعالى يقول: (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) وأنت لك من اسمك نصيب، وإذا الشاب أخطأ هل نكون نحن والشيطان عليه؟! ألا يكفي الشيطان وحده؟!

وبموافقة مبطنة بأسى:

إيه صدقت يا ولدي.

وأردف منتهزاً سكينة أبي صالح:

أجل وش رأيك لو أنهينا المشكلة وصفينا الأنفس؟!

رفع أبو صالح عينيه وتفحص وجوهنا وبتردد:

اللي تشوفه يا ولدي.

وبدت علامات السرور على وجه عمر وهو ينهض معلناً نهاية الجولة الأولى من مفاوضات السلام:

عن إذنك يا عم ودي أدق الحديد وهو حامي.

أعلن عمر وصولنا إلى المعسكر الثاني.

ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

ثم تقدم نحو باب الشاليه:

مساكم الله بالخير.

أطل علينا طارق وهو يغطي رأسه بمنشفة:

الله يمسيك بالنور.

ثم أشار إلينا بالدخول:

تفضلوا يا شباب.

وسأله صوت من الداخل:

مَنْ اللي عند الباب يا طارق؟!

ضيوف يابوي.

يا هلا والله ومرحباً.

واقترب الصوت أكثر فأكثر فخرج إلينا رجل في العقد الخامس وعلامات الطيبة قد استوطنت وجهه منذ الأزل وهو يردد:

الله يحييهم يوم عنوا يمنا[٨].

بادره عمر بالسلام وقبّل رأسه وهو يعتذر:

آسفين على الإزعاج.

فابتسم الرجل:

الله يهديك يا ولدي ما فيها إزعاج ولا شي.

---

(٨) عنوا يمنا: تكبّدوا مشقة ليصلوا إلينا.

وأضاف مجاملاً:

والله يعافيكم يوم جيتوا توسعون صدورنا[٩].

ثم التفت محدثاً ابنه:

جب وأنا أبوك زولية[١٠] خل[١١] نقعد في هالبراد.

ملوحاً بيده دلالة الاعتراض:

من داخل أزين يا يبه.

باستسلام:

شورك وهداية الله.

دخلنا وأخذ العم أبو طارق مكانه في صدر المجلس وإلى جواره عمر، أما نحن فلا يهم أين جلسنا، فقد كنا كخيال المآتة[١٢]. مرت الدقائق هادئة وثقيلة وبطيئة ولم يحرك عمر مياهها الراكدة فجل حديثهم كان يدور عن حرارة الجو والسياحة الداخلية وأبو طارق مرة عقله مع عمر وكثيراً مع فنجان القهوة، فقد كانت شفتاه تلثمان الفنجان بشهوة غريبة.

وبأدب جم ألقى عمر حجراً في مياه أبي طارق الراكدة:

يا عم أبوطارق الأولون يقولون: (الطيب ولا الردى).

وهو يهز رأسه علامة على الموافقة:

---

(٩) توسعون صدورنا: تؤنسوننا.

(١٠) زولية: سجادة.

(١١) خل: دعنا.

(١٢) كخيال المآتة: لا قيمة لها.

صدقت يا ولدي، الأولون ما خلّوا للتالين شي.

معترضاً برفق:

بس أكيد أنهم تركوا أخلاق ومراجل زرعوها في عيالهم.

مؤيداً:

صدقت يا ولدي.

وبتلميح مؤدب:

والله سبحانه يقول: (لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي لأقتلك).

توترت عضلات أبي طارق والتقى حاجباه وضاقت حدقتاه وباستغراب:

وش تقصد يا ولدي.

دقت طبول الحرب.. حانت ساعة الصفر ونظراتنا اتجهت نحو عمر الذي ارتبك ارتباكاً غير ملحوظ ولكنني أدركت ذلك من عضته لشفتيه. الصمت مطبق. خانق وأشد علينا من حرارة الجو.

مال عليّ أيمن هامساً محاولاً بث عبارات باردة تقتل الصمت والحر:

ظنك بيجيه الفنجال في وجهه؟

ابتسمت مجاملاً:

عمر ذيب وما ينخاف عليه.

قتل عمر ثواني الصمت بابتسامته:

يا عمي أنت من عائلة طيبة والطيبة فيكم طبع، ولكن اللي صار بينكم وبين جاركم أبو صالح ما يرضي أحد.

مقاطعاً:

أنت عارف يا ولدي هو اللي تهجم علينا وقعد يرعد ويزبد ويقول إنه بيذبح طارق.

وبهدوء ملائكي:

أنا كنت عند العم أبو صالح وفهّمته وقال إنه معترف بخطاه ولكن..

باستعجال:

ولكن وش وأنا عمك؟!

بدهاء:

ما بغيت أبو صالح يسبقك بالطيب.

متسائلاً:

وشلون؟!

وابتسامة النصر بادية عليه:

ودي إنك تروح يمه.

اللي تبغاه يصير يا ولدي.

وبتردد:

بس أخاف يا عمي..

وش تخاف منه؟

ابتسم وهو يغمز لي بعينه:

يتباطك[13] أبو صالح ويجي لنا.

فهبّ واقفاً وهو يفتخر بتاريخه:

وأنا ولد فرج والله ما يسبقني بالطيب أحد.

---

(13) يتباطك: يتأخرك.

٨

«يا ليل يا جامع قلوب المحبين

لك عادة تجمع قلوب الولايف».

كان أيمن يدندن بهذه الأغنية الشعبية وهو قادم إلينا حاملاً إبريق الشاي. وضع الإبريق وقام يتراقص أمامنا وهو يكرر ويشير إلينا:

تجمع قلوب الولايف

تجمع قلوب الولايف.

فمازحه عمر:

اقعد يا شيخ أنت ما تدري أن أنكر الأصوات هو صوت الحمير.

وهو يجلس ضاحكاً:

أنت تأمر يا مولانا.

التفتّ إلى أيمن متسائلاً:

وش السالفة؟! وش طاري هالوناسة اليوم؟

فأجابني ساخراً:

قعدة على البحر ومع ناس تحبهم.

وأضاف قاصداً مناكفة عمر:

وصبايا يمروا من هون وهون.

قطّب جبينه:

استغفر ربك يا أيمن.

فحاولت تغيير الموضوع لحاجة في نفسي:

لا والله أطيب من هذا كله أننا أصلحنا بين جيراننا.

فضحك أيمن وهو يشير إلى عمر:

الفضل بعد الله لمولانا.

بهدوء وهو ينظر للأرض:

الفضل لله سبحانه.

وضعت يدي على رأسي كمن تذكر شيئاً:

يووووه ه ه نسيت!

نظر إليّ أيمن مستفسراً:

وش اللي نسيته يا أبوحسين؟!

كنت أبسأل أبو حفص.

ابتسم وهو ينظر إليّ:

وشوا عنّه؟

رددت الابتسامة بأحسن منها:

اليوم وأنت تكلم أبوصالح ورا ما قلت له إن الخطأ مهوب على طارق بس..

تدخل أيمن مستغرباً:

أجل من هو عليه؟!

فوضّحت:

بنت أبوصالح الله يستر عليها تلبس هدوم مغرية وكأنها تعرض نفسها.

هز رأسه:

يمكن كلامك صحيح.

فتحمست وبصوت عال:

وش اللي يمكن، شاب جمره يتواقد[1] وشاف قدامه بنت فلقة قمر مرة تلبس ضيق ومرة شفاف وكل شي بارز من ورا ملابسها وتقولي يمكن

ضحك أيمن:

المال السايب يعلم السرقة.

تعدل في جلسته وتغيرت ملامحه وكأنه اقتنع بما قلت:

(١) جمرة يتواقد: كناية عن الشهوة وفورة الشباب.

كلامك سليم، بس صعبة وأنا في مجلس الرجّال وأقوله بنتك فيها وفيها

قاطعته:

أجل نتركها تبلّي[٢] خلق الله.

قاطعني مستدركاً:

أولاً نحل المشكلة الكبيرة وبعدين الصغيرة.

أيمن وهو يصب لنفسه بيالة شاي متسائلاً:

وشلون؟!

عدل عمر وضع جلسته:

أبوصالح كان يهدد أنه بيذبح الولد والا أنا غلطان؟!

عداك العيب يا أبا حفص.

فأكمل عمر:

فأيهما أخطر، القتل وإلا لبس ذيك الهدوم؟

فقاطعته بتحيز ذكوري:

ولكن لو أنها سايرت عمرها ما كان أحد جاها ولا أحد هدد أنه بيذبح أحد. وبكذا تكون النتيجة مرضية للكل

والمعنى من ذا الكلام؟!

وبتهور:

---

(٢) تبلّي: تمتحن.

يعني أنها مستقبحة.

لاحت بوادر غضب عمَري:

استغفر الله.. استغفر الله يا أخي. لا تقذف المؤمنات المحصنات.

فأحنيت رأسي وبندم المعتذر:

استغفر الله.. آسف يا شباب ولكن الشيطان خلاّني أقول ها الحكي.

أحس عمر بصدق ندمي، وبحنان:

الله غفور رحيم.

ثم حاول تطييب خاطري:

معك حق يا أبو حسين، البنت متبرجة ولكن لعلي أنصح أباها بخصوصها.

فأشرتُ بإبهامي اليمن:

كذا ممتاز.

وهنا تدخل أيمن:

كيف بتنصحه؟!

تنهد عمر والنعاس بدأ يغازل أجفانه:

إما بتلميح أو برسالة مجهولة. المهم باكر بإذن الله أبشوف وش الدبرة[٣]...؟!

ضحك أيمن:

---

(٣) وش الدبرة: ما الحل.

شعارنا بهالرحلة: (دق الحديد وهو حامي).

تثاءب عمر معلناً نهاية سهرته وهو يهم بالمغادرة إلى فراشه:

باكر بإذن الله بدق عليه وهو حامي.

بعد نظر. حب الجميع. الاعتراف بالخطأ. احترام الرأي الآخر. الإصلاح بين الناس. كل تلك عبارات قرأت في كتبي المدرسية أنها من تعاليم الإسلام. لم يكن عمر هو الوحيد الذي يتحلى بهذه الصفات وإن كان أوضح حامليها بالنسبة لي. ذلك ربما لقربي منه. وتطف إلى ذاكرتي عند كل موقف من مواقفه الرائعة نماذج متناقضة لمطاوعة أسمع عن بعضهم وإن لم أكن رأيته، لهم لما لعمر من أخلاقيات الإسلام. وكم من مواقف عبرتني وعبرت العبرة منها دون كثير توقف عندها، تبدو واضحة في الذاكرة وطازجة أكثر من يوم حدوثها تصدم تلك الذاكرة بأفعال مطاوعة آخرين اتصفوا بالغلظة والقسوة.

ما بين غفلة ويقظة تشاجرت على وسادتي مواقف ومواقف لمطاوعة بعضها مشرق وبعضها قاتم. نفس عمر المطمئنة الهادئة أخذته في منام عميق بينما ما زال أيمن يتقلب على جمر هواجسه مثلي.

غافلتني همسة مغلفة بالتمني:

ليتهم كلهم مثلك يا عمر، ليش ما يكونون كذا مهوب المنبع واحد؟!

جاءني رد أيمن عميقاً:

كثيرون مثله، ومهوب كل المطاوعة بهذا السوء ولكننا نشوف البقعة

واضحة في الثوب الناصع.

حتى أنت يا أيمن بعد كل ما لاقيت منهم! ربما أنا الوحيد الذي يراهم بعين واحدة. كم تمنيت أن يكون الثوب كله ناصعاً، لكن لا ضير من وجود بعض البقع.

أفقت على صوت أيمن:

عمر ظنه زين بالناس كلهم.

– وشلون؟!

– بنت أبو صالح قحبه.

– يا شيخ قل غير هالكلام

– اسأل مجرب ولا تسأل خبير.

– كيف؟!

اعتدل في جلسته وشد صدره للأمام:

أنت عارف أن نفسي ما تخليني أفوت مثل هالفرص. قابلتها مرة وكلمة تجر كلمة حتى أخذت الرقم.

بلهفة واستعجال:

وبعدين؟!

ابتسم بخبث:

تقابلنا مثل المتزوجين ولكني سلكت الطريق الصحراوي.

مستغرباً:

وش تقصد؟

ضاحكاً:

هذي شفرات ما يعرفها إلا أهل الصنعة.

وهالحين تركتها؟!

يومياً تكلمني على الجوال.

وأضاف ضاحكاً:

طبعاً بطاقات الشحن أنا اللي أدفعها.

متسائلاً:

طيب ليه ما علّمت عمر.

خلّه عند حسن ظنه.

وأضاف ساخراً:

هي بنات الناس لعبة.

صمت للحظات ثم.... تظاهر بالنوم.

انتابتني كثير من الوساوس والرغبات.. لماذا يستطيع دائماً أن ينال منهن؟ هل هي وسامته الزائدة أم جرأته.

وبعد قليل سمعت رنين جواله فنظر إلى الرقم وحمله وابتعد...

خيّل إليّ بعدها أنني رأيت شبحين يغوصان في جوف الظلام، أحدهما كان أيمن والآخر ملفوف في عباءة كانت جزءاً من سواد الليل.

٩

بعد تخرجنا في المرحلة الثانوية انفرط عقد (ثلاثي أضواء المسرح) تعليمياً فقط، فقد سلك أيمن طريقه في عالم النجوم بينما الشيخ عمر التحق بكلية العلوم الدينية، أما أنا فقد استقبلني سيبويه بالأحضان. وكم كنت سعيداً عندما علمت أن الدكتور (عبادي الصدامي) سيعطينا مادة في ذلك الفصل، فالصدامي هو أول من تعرض لهجمات أولئك الإرهابيين الذين جعلوا من سفك الدماء غاية ومن الدين وسيلة وبتسميم عقول السفهاء بالحقد على كل ما هو جميل ومشرق في الدين، فقبل عقدين من الزمن شن أولئك المتطرفون حرباً لا هوادة فيها ضده واستخدموا جميع أسلحتهم الفتاكة في تلك المرحلة قصفاً بالخطب أو إنزالاً جوياً بالأشرطة أو منشورات ملغمة حتى تغلغلوا بينه وبين نفسه ولكنه صبر وصمد، وقاوم وكان فرداً وهم ملايين، وبعد أن سقط القناع وأبلج وجه الحق أصبح هو الملايين وهم الفرد. في ذلك الصباح كنت أجري

لأسبق عقرب ساعتي لكي لا تفوتني محاضرته. وصلت متأخراً قليلاً، طرقت باب قاعة المحاضرات منتظراً الإذن بالدخول، سمعت صوتاً يدعوني إلى الدخول:

تفضل.

بارتباك طالب مستجدّ:

السلام عليكم.

وبدون أن يقطع حديثه:

وعليكم السلام.

أخذت مكاني في أقرب مقعد شاغر والذي أثّر في خريطة حياتي، فتغيرت فيما بعد إذ صادف جلوسي جوار شاب أصبح لاحقاً صديقي اسمه «كاظم حسين باقر» (فأصغيت بسمعي لنبي الحداثة كما يسميه أولئك الموصوفون بأنهم «مطاوعة») فهو متحدث لبق، يأسرك إذا تكلم مدللاً لما يقول فاجتمعت فوق رأسي مجموعة من النقاط قد انتظمت في عقد جميل حتى كونت علامة تعجب، فكيف يكفر مثل هذا الرجل؟!

وهل علموا ما الحداثة حتى يكفروا لأجلها؟

عدت من تأملاتي لواقعي لأجده قد امتلأ بالمقاعد والطاولات الخالية ولا يوجد في المكان سواي، فنظرت إلى ساعتي فوجدت أن المحاضرة قد انتهت منذ أكثر من ثلاثين دقيقة.

صداقة الكتاب والإعجاب بأفكار الصدامي التنويرية واحترام

الصوت الآخر كلها، عوامل قربت بيني وبين كاظم حسين باقر بالرغم من الاختلافات المذهبية المقيتة والطائفية اللعينة التي تعصف بكيان البشرية.

ومع هذا قامت بيننا صداقة صوتها الوفاء ولحنها الخلود.

******

بأدب متناه:

علي.. أبوحسين لو تكرمت.

فعدت من شرودي:

نعم يا أبوباقر.

وهو يعبث بأصابعه خجلاً:

الأسبوع اليايّ(١) بداية شهر محرم، وأنا ما راح أقدر أكون هني.

عسى ماشر؟!

باستغراب:

عندنا عزاء سيدنا الحسين عليه السلام.

ممازحاً:

نسيت أنك شيعي.

مبتسماً وهو يعطيني جهاز تسجيل:

يعني ممكن يا السني تسجل لي محاضرات الأسبوع المقبل.

---

(١) اليايّ: القادم.

موافق ولكن بشرط يا كاظم الساهر.

رد بسخرية:

وش شروطك يا صاحب الفخامة؟!

إنك تتعشى عندي في البيت إذا رجعت بالسلامة.

بارتباك:

ولكن!

ابتسمتُ وأنا أغمز بعيني:

لا تخاف منيب حاط لك شيء في الأكل.

وهو يضحك بصوت عال:

أكيد.

وبضحكة فيها محاولة استفزاز:

أبحاول.

وبسخرية ظاهرة:

عقبال ما يكتب لهذه المحاولة النجاح.

بالرغم مما تعرضت له من انتقادات بلغت حد المضايقات من قبل الزملاء في الكلية حتى غدت نظراتهم تناديني يا كافر، لم يؤثر فيَّ ذاك، فقد تراكمت لدي قناعة راسخة بأن الدين المعاملة.

******

في زحام بهو الكلية، والطلاب متناثرون في كل مكان كحبات العقد المنفرط، وأغلبهم مشغول بمراجعة مذكراته، إذ اليوم هو الاختبار الأصغر، وكما تردد والدتي عندما أخبرها بنجاحي وهي ترفع يدها بالدعاء:

(عسى الله يوفقك في الاختبار الكبير[٢] مثلما وفقك في الاختبار الصغير)

فكلهم منهمكون. مشغولون. مرتبكون. وحائرون..

عدا خمسة طلاب من المستوى الثاني كنا نتحدث عن الخلاف الأزلي والجدلي المعشش في عقولنا عن المذهبية.

وكنا منقسمين إلى فرقتين الأولى يتزعمها أبو عبد الله وتضم إلى جانبه خالد وطلال وبدر والثانية كنت فيها وحيداً، وبدأ النقاش وبدأت معه الهوة تتسع بين أفكارنا، واتضح ما للبيئة من تأثير فصاروا كأهلها لا يسمعون صوتاً غير صوتهم وأخذت عبارات السخرية والاحتقار تصوب تجاهي.

أنت ما تفهم، اقطع واخس. كلامك هذا كفر. خذ وخل[٣].. تفكيرك منحل.. يا العلماني. رأيك حطه في بطنك.

كل تلك الكائنات اللفظية كانت تعيش وتتكاثر في عالم النقاشات

(٢) اختبار الآخرة: الجزاء والحساب يوم القيامة.
(٣) خذل وخل: ليس كل ما يقوله حقيقة.

الوحيدة الطرف. والمضحك في هذا النقاش أنني كنت المستمع الوحيد فيه.

لذت بصمت يعصمني من السقوط الأخلاقي حتى لا أجاري تلك العبارات البذيئة الساقطة التي تخرج من فم أبي عبدالله مصطحبة معها رذاذاً كريه الرائحة ملوثاً أنحاء.. المكان والمقاعد والهواء والوجوه والأجساد والمذكرات وأكواب الشاي.. وحتى عمال الخدمة.

أنت يا علي تماشي[٤] هالرفضة[٥] وتنسى الولاء والبراء.

ابتسمت ورفعت بصري إليه:

ليه ما تحسن الظن وتقول إني استميل قلوبهم إلى مذهبنا.

حرك رأسه معترضاً:

استغفر الله! هذي أفكار يزينها لك الشيطان.

ثم أضاف ساخراً:

وإلا أنت ما تقصد اللي تقوله؟!

فحاولت استفزازه:

النيات لا يعلمها إلا ربك.

وبعدين وش فيهم الشيعة مهوب مواطنين في هالبلد مثلك؟!

---

(٤) تماشي: تذهب وتروح.
(٥) الرفضة: الشيعة.

فقاطعني بغضب:

بس تراهم يكرهونك:

وببرود:

أنت تؤمن بالله وبرسوله؟!

باستعجال:

عليه الصلاة والسلام.

ثم أضاف ناصحاً:

علّم روحك.

فابتسمت:

فعل الرسول يقتدى به أم لا؟!

نعم، فهو دليلنا إلى الجنة.

فابتسمت بسخرية:

ألم يرهن، صلى الله عليه وسلم، درعه عند يهودي؟!

فغضب ونهض وهو يصرخ:

ناصح البدو في النار ولكن بيجي يوم ويغدرون بك وتراهم بيحطون لك شيء في الشاهي.

فضحكت وأنا أستفزه:

على فكره تراني ما أحب الشاهي.

فازداد غضباً:

جعلهم يشربون من دمك.

وغادر المكان وخلفه دمى حزبه التي تؤمن بمبدأ (الرأي رأيك يابيه والشور شورك يابيه) وأخذت أرتشف من كأس النسكافيه الذي أمامي وأفكر في خزعبلات زملائي.. أصدقائي.. أقاربي.. معارفي.. والمجتمع المحيط بي عن تلك الطائفية المقيتة التي صارت سوساً تنخر عظام مجتمعنا.

آه كيف لأناس متعلمين ومثقفين يرون تلك الأوهام الأساطيرية، فكلما تذكرت ما يروج عن ذلك الشيعي الذي قامت بينه وبين سني أواصر صداقة ومحبة واستمرت هذه الألفة سنين حتى جاء ذلك اليوم الذي أعلن فيه الشيعي اعترافاته حين قال لصاحبه السني: (سامحني فطوال صداقتنا كنت أخونك بوضع بولي لك في إبريق الشاي).

لا أدري.. كيف..لم أجد تعايلاً مقنعاً، ولم يكن لدي الوقت لأفكر. والحقيقة الوحيدة لتلك اللحظة أني عندما رأيت أبا باقر يمر أمامي في بهو الكلية تحركت يدي تؤشر له ولساني يردد اسمه:

أبو باقر.. أبو باقر.

اتجه نحوي وبادرني:

السلام عليكم يا أبو حسين.

وعليكم السلام يا أحلى شيعي بجامعتنا.

فضحك:

طيب وين المحاضرات التي سجلتها حقي؟!

هززت رأسي بالنفي:

لا.. لا.. إنسَ.

بان الضيق على وجهه:

ليه.. وش حقه.

بتحدٍّ:

منتب ماخذها[٦] حتى توفي بوعدك لي؟!

مستغرباً:

أي وعد؟!

وضعت يدي على عضده:

إنك تتعشى عندي في البيت.

ابتسم:

خضيتني يا معود[٧].

ثم أضاف:

الليلة بتعشى عندك.

---

(٦) منتب ماخذها: لن تحصل عليها.

(٧) خضّيتني يا معوّد: أرعبتني يا رجل.

١٠

عندما أخبرت والدتي بأن مجموعة من زملائي بالجامعة مدعوون عندي لتناول العشاء الليلة ضربت كفاً بكف وهي تؤنبني:

يا وليدي ورى[1] ما علمتنا أمس.

بلا مبالاة:

وش فرق أمس عن اليوم..؟!

كان نصلح شويه فطاير وحلى.

قبلت رأسها:

أنا قايلهم الله يحييكم على الميسور.

(١) ورى: لماذا.

عاتبتني بحروفها:

بس وأنا أمك. أنزلوا الناس منازلهم.

باستسلام مبطن بإعلان نهاية الحوار:

الشكوى لله يا ميمتي[٢] ولكن اللي تبغينه بيصير.

ابتسمت ابتسامة إعجاب بابن مطيع:

رح وأنا أمك جب شويه خضرة نطبخها مع القرصان وشوية بردقان وتفاح.

أبشري يمه، والله لوبغيتي سوق الخضرة لأجيبه لك.

خرجت وأنا أسمعها تلهج بالدعاء:

الله يخليك لي ويكفيك شر رفقة السوء.

******

أبو علي.. أبو علي.

ما أن لامس هذا الصوت مسامعي حتى انقبض قلبي وتقلصت عضلات وجهي وارتفعت درجة التوتر لدي حتى وصلت إلى لون البرتقالي

وتمتمت في سري:

---

(٢) يا ميمتي: يا أمي.

الله يلعن ذا الوجه وش جابه هالحزه[٣].

وارتديت قناعي العائلي والبشاشة تعلو محياي:

اقلط.. يا هلا ومرحبا.. اقلط يا الله إنك تحييه.

عبس في وجهي وباحتقار:

وين أبوك يا ولد؟!

وبتحمُّل وأنا أضغط على أسناني قهراً وغيظاً:

في مجلس الرجاجيل.. تفضل يا شيخ سعد.

قدم رجله اليمني ودخل المجلس.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وعليكم السلام.

وقف والدي مرحباً:

يا حي الله الشيخ.

ثم أشار إلى رأس المجلس:

تفضل يا شيخ.

فحاول الاعتذار.

ودي أمشي عندكم ضيوف.

فتدخلت باحترام:

إذا أوافقك خير فوافقه.

---

(٣) هالحزة: هالوقت.

وضع يده على ذقنه وعبث باللحية.

بس ما عرفتني على الشباب يا أبوعلي؟!

ارتبك والدي لوهلة:

ربع علي بالجامعة.

وبإصرار من يبحث عن زلة:

إيه خابر بس منهم عياله.

وبعناد وتحدٍّ وأنا أشير إليهم:

هذا كاظم حسين واللي جنبه جعفر علي واللي بعده نافع الصادق.

وباحتقار وهو يلتفت إلى والدي موبخاً:

أفا يا أبو علي تقاط(٤) عندك في بيتك رفضة.

نظرت باتجاههم وعيوني تنقل اعتذاري لهم وهم مطرقون للأسفل وكأني بهم يلعنونه في سرهم ويدعون لي بالصبر والثبات وفضيلته مستمر في خطبة العصماء.

أنت تدري أن في كتبهم مَنْ ذبح سنياً دخل الجنة؟!

فحاول والدي أن يهدئ من ثورته:

ولكنهم ضيوف علينا ومن حقهم أن نكرمهم.

فالتفت فضيلته نحوي وهو يشير بيده:

---

(٤) تقاط: تدخل.

أنت ما منك خلاف[٥]، مصلي ومسمي[٦]، ولكن هالنزغة عسى الله يأخذه ويريحنا منه.

وبعد أن تمالك أبو باقر نفسه من آثار الصدمة:

يا الله يا عمي أبو علي حنا نستأذن.

وأضاف وهو ينظر إلى الشيخ بمقت واحتقار:

ويكفي الإحراج اللي أوقعناك فيه.

اكتسح طوفان من العرق والدي وارتبك وتلعثم، وبتردد وهو ينظر بطرف خفي إلى فضيلته:

تمشون لا.. لا ما يصير، إذا أكلتوا كرامتكم فالله يسهل دربكم.

وبعناد وإصرار:

كرامتنا يا عمي أكّلناها الشيخ.

وبارتباك وخجل:

أنا آسف يا عيالي ومن حقي عليكم أنكم تقبلون اعتذاري.

فقاطعه فضيلته بغضب صراخي:

تعتذر لهم! وين الولاء والبراء في الدين.

فانفجرت وأطلقت صواريخ من الكلام أصابت أهدافها بدقة:

اللي يهين ضيوفنا يهيننا واللي يهينا ما له مكان بمجلسنا.

---

(٥) خلاف: مشكلة.

(٦) مصلي ومسمي: تطلق على الرجل الذي في حاله.

وبغضب وهو يحاول استثارة والدي:

تطردني يا بزر ولكن الشرهة[٧] على أبوك اللي عادك رجّال[٨].

تقدم والدي نحوي وقد ذابت جميع الحدود على وجهه فاختلطت فيه التعبيرات، ورفع يده وضربني بكفه على وجهي:

ما ربيتك على كذا يا علي.

ثم استدار لفضيلته وهو ينظر للباب:

إذا ضيوفنا ما أعجبوك تقدر تجي وقت ثاني.

تلعثم فضيلته وبين مصدق ومكذب:

تطردني يا أبو علي.

فرد عليه واللا مبالاة تغطي كل عباراته:

سمها مثلما تبي.

وهو يلملم أطراف عباءته:

قالوها الساكت خف[٩] منه وأثري أقول هالنزغة طالع فاسد منهو عليه.

وبابتسامة نصر على الخوف:

على فكرة يا شيخ، تراك بتصرفاتك هذي تشوه صورة الدين.

وهو يدير ظهره خارجاً:

والله وصرت تحكي يا بوعلي.

---

(٧) يا بزر: يا ولد. الشرهة: العتب.

(٨) عادك رجّال: يعتقد أنك رجل.

(٩) الساكت خف منه: احذر من الصامت.

فارتفع صوته عالياً بالدعاء:

الله يأخذك أنت وعيالك أخذ عزيز مقتدر.

الله يطهر المسلمين من أمثالك.

الله يرينا فيك عجائب قدرته.

ثم التفت والدي معتذراً:

آسف يا شباب على الكلام اللي سمعتموه وجرحكم من الشيخ سعد.

تقدم منه أبو باقر وقَبّل رأسه:

يا عمي حنا مثل عيالك واللي تبي سوّه فينا.

ثم تقدم والدي نحوي وقَبّل جبيني وضمّني إلى صدره وبكى:

سامحني يا ولدي هذي أول مرة أمد يدي عليك، ولكنك تهجمت على كبير في هالسن قدامي ولا حطيت لي لا قدر ولا حشيمة(١٠).

فأخذت يده وقبلتها:

سامحني يا بوي، والله ثم والله ما أتعودها.

أبعدني عن صدره ثم وضع يديه على زنديّ وهزّني بقوة:

هذا ولدي اللي ربيته وكل شي سويته عشانك، فلازم ترفع راسي فوق.

تدخل أبو باقر:

---

(١٠) لا قدر ولا حشيمة: أي مكانة وقيمة.

ـ إن شاء الله يرفع رأسك يا عمي.

ثم أضاف وكله إعجاب:

وبصراحة أنت أبو كل واحد يتمنى يكون ولدك.

فقاطعه والدي:

الله يسلمك يا ولدي.

ثم التفت ينظر للأمل:

لكن ولدي علي وهو راس مالي، وهو أفضل واحد بها لدنيا.

يا عمي تراك نجحت في تربية علي والباقي عليه.

فتدخلت وأنا أحس لأول مرة كم هي آمال والدي المتعلقة بي:

ما راح أخيب رجاك فيني يا أبوي.

ووقعت على رأسه أقبله.

١١

ربما تقديراً لي أو لاستمالة قلب صديقي أبي باقر للمذهب السني دعانا عمر على العشاء في نهاية الأسبوع، ولكننا اشترطنا أن تكون في منطقة الثمامة وهي تعد المتنفس اليتيم لشباب العاصمة المكبوت بلاءات النظم والمجتمع والخطاب الديني، وتتناثر مجموعات من الشباب على هذا الشاطئ الجاف مائياً والمليء ترابياً وكان كل يعبد ربه على هواه.. فهنا شباب يلعبون (البلوت)[1] ورابح صقر يصدح عبر FM «وسهرتنا الليلة خلّوها صباحي»، وبالقرب منهم فرقة شباب أخرى أحدهم يعزف على العود والبقية منتشون ومنهم من قد قام يتراقص في الوسط مرة برأسه وتارة بمؤخرته، ومن هنا تمر مجموعة من المراهقين يستعرضون بدراجاتهم النارية أو سياراتهم الفارهة، وهناك مجموعة من ذوي البشرة الداكنة قد أحضروا معهم

(١) البلوت: لعبة ورق

الطيران ويطقون سامري[٢] وقد تساقط بعضهم في الوسط ممن به مسّ من الجن.. وفي وسط هذه المعمعة والعالم المزدحم بالمتناقضات وضعنا بساطنا وبدأنا إنزال لوازم الشواء، وكان ذلك بموافقة مكرهة من عمر، وبجوارنا كان شباب بسطاء معهم بعض الآلات الموسيقية فذهب إليهم ساحرنا وحياهم ودعاهم إلى العشاء وعندما رفضوا أهداهم شريطاً فيه تلاوة قرآن بصوت الشيخ محمد صديق المنشاوي فامتنعوا عن لهوهم احتراماً وتقديراً لنا، ولكن بعد قليل رأينا غبرة قادمة إلينا وأتربة وأعاصير حتى تنازلت السماء عن لونها الأزرق الجميل لصالح الأصفر الغباري، وتلاقت الأجفان واستعانت الأنوف بالأيدي حتى توقف (جمس) هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند الشباب المجاورين لنا ونزل أربعة رجال مسرعين وأكبرهم يصرخ آمراً:

يا شيخ خالد خذ أدوات اللهو منهم.

فتقدم أحد الشباب وبارتباك:

طيب يا شيخ جزاك الله خير وش حنا مسوين؟!

فرد الشيخ بزمجرة وغضب:

اسكت وإلا ركبتك الجمس وعلمتك شغل الله[٣].

وأخذوا يكسرون تلك الآلات أمام أعين أولئك الشباب الصغار وتوسلاتهم تضيع هباء منثوراً:

يا شيخ والله مهيب لي لا تكسرها وخذني بدالها.

---

(٢) السامري: نوع من الفنون المعروفة في الخليج.

(٣) شغل الله: التأديب على الذنب.

وبسخرية فيها رائحة الاحتقار:

آخذك وأكسرك.

فقمت مسرعاً إليهم وبادرتهم:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فنظر لي باحتقار:

وعليكم السلام.

وأضاف:

الفرجة ممنوعة.

وبهدوء مصطنع:

حنا جايين نعرف وش السالفة.

وأشار إليّ بإصبعه وهو يحركه صعوداً ونزولاً.

مَنْ الأخ؟! مفتي البلد؟!

لا ولكن شخص يغار على دينه وديرته.

مشيراً إلى ملابسي الرياضية:

بهذا اللبس بتغار على دينك وديرتك؟

فقاطعه عمر:

السلام عليكم يا شيخ.

وعليكم السلام..

فناصحه:

يا شيخ الله يهديك هذي مهيب طريقة تعاملون بها الناس، تهاجمهم ثم تكسر أدواتهم.

فتقدم إلينا كبيرهم محذراً:

لي عشرون سنة وأنا أتعامل مع ها الأشكال. يعني قبل ما تجيبك أمك.

وبغضب صرخ فيه عمر:

ولكن الدين ما قال انصحوا الناس بها لطريقة.

فهز أحدهم يده وهو ممسك بعرق الخيزران:

الظاهر تبغون هذا يوسم[٤] في ظهوركم.

فصرخت وبتحدّ:

وراكم مرّيتوا من عند أول جلسة ومعهم مراويس وأورج وأعواد ولا قلتوا شي.

وابتسمت ساخراً:

والا عشان الـBMW والمرسدسات اللي موقفه تخليكم[٥] ما تقدرون تسوون شي.

فتقدم أحدهم ورفع يده ليضربني:

والله لأريك وأسجنك.

فمسكت يده.

---

(٤) يوسم: يعلّم

(٥) تخلّيكم: تجعلكم.

تخسي[٦] الدولة فيها قانون وترى هي اللي سمحت بها الأدوات تدخل للبلد.

فتدخل أحد المتجمهرين:

اليد اللي ما تقواها صافحها.

فتدخل الشيخ موضّحاً:

أنتم ما تفهمون وش حنا نسوي.

فارتفع صوت أحد الحضور وبطريقة أضحكتنا:

طيب ورنا شطارتك وارجع لراعي الـBMW وخذ منه طرف عود أو انصحه.

فتعالت أصوات المتجمهرين:

هو صادق ورنا مشيك بالسروال.

جبناء يتقوون على الضعوف.

ترى لهم حسناتهم يا شباب.

دشير الأمس مطاوعة اليوم.

فلم يجدوا بداً من الهرب بسيارتهم من الجماهير الغاضبة، وعدنا إلى حيث مكان جلوسنا وارتفعت أصوات الموسيقى الصادرة من جلسة الـBMW وكأنهم يتحدون رجال الهيئة الذين أخذوا يذرعون الشارع بدون أن يحركوا الرابضة.

---

(٦) تخسي: أي أنت لست أهلاً لذلك.

ولكن الإسلام تحرك واتجه نحو أولئك الشباب الارستقراطيين، وقررت مرافقة عمر ولم أكن بتلك القوة لأدفع عنه أي اعتداء جسدي ولكن على الأقل أشاركه في ألم الاعتداء.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فرد سيدهم:

وعليكم السلام.

ثم أصدر أوامره:

عيد ما أبغى أسمع صوت موسيقى.

فابتسم عمر:

الحقيقة هذا عشمنا فيك، وأنا عرف أنك ابن عائلة وما ترضون تضايقون غيركم.

فابتسم فاختفت معالم وجهه خلف ألوان المكياج التي تغطي وجهه:

الله يطول عمرك، حنا ترى نحب الملتزمين اللي مثلك مهوب مثل الهمج[٧] اللي تو.

فقاطعه موضحاً:

بس هم ناس مجتهدين وقد يخطئون.

جزاك الله خيراً وحنا معهم ونؤيدهم بس يبغى لهم فن التعامل مع الغير.

---

(٧) الهمج: المتهورون.

وهو يهم بالمغادرة:

بالإذن يا طويل العمر.

محاولاً ضيافتنا:

ما قهويناك يا شيخ.

بكلامك اللي يطيب الخاطر كنك معطيني الدنيا بما فيها.

آه كم صرت أحبهم يا عمر لأنهم مثلك.

آه كم صرت احتقرهم لا بل أشفق عليهم لأنهم ليسوا مثلك.

١٢

أعلنت الجامعة أسماء الطلاب المبتعثين عن قسم اللغة العربية لإكمال الدراسات العليا بلندن.

ها ها ها لندن. لغة عربية بلندن! لغتي يعلمني إياها الغريب.

ها ها ها لندن. باي باي يا عرب!

وعلى الرغم من المرض (الأجنبي) الذي استشرى في جميع الجسد العربي فأصابه بأعراض التهاون والتخاذل والتمسك بذيل الأمم المتقدمة، فإننا لا نستطيع أن نعالج واقعنا أو نأخذ لقاحاً من أجل بناء مستقبلنا.

فغدونا عمياناً مبصرين وطرشاناً يسمعون وبكماً يتكلمون.

عدت إلى المنزل وأنا مرة أمشي على الأرض ومرة أطير فوقها، ولعبت الأحلام لعبتها فلم أترك منصباً إلا وتقلدته، طبعاً بالحدود التي يسمح بها.

فلدى دول العالم الثالث حدود لكل شيء حتى الأحلام، غير أن نفسي الشريرة غافلت حراس الحدود وتبوأت رئاسة دولة أحلامي فطاردتني اللعنات وزرت العالم السفلي وتعالت الصيحات يا كلب، يا جزمة، يا عميل العملاء، يا جاسوس، يا كافر.. وخرج المُفتون وأتوا بالأدلة والبراهين التي تثبت سوء عقيدتي وأن قتلي قرباناً لله جائز. فضحك شيطاني وسخر قائلاً: رحم الله السادات؟!

فسألته:

ولماذا؟

فغمز بعينه:

إديه فرخة يديك فتوى.

فأردت أن أتكلم فأبى لساني قائلاً وهو مرعوب:

ما لنا ومال السياسة.

فانتبهت فإذا بغالبيتهم وصلوا إلى ما حلمت به عبر دبابة لا عبر صندوق اقتراع.

داهم خيالاتي صوت أمي.

علي.. عليوه.

فحركت عيني وهززت رأسي.

هاه.. هاه سمي[1].

ثم التفتّ متفحصاً المكان:

أجل، وبني فيه.

وضعت يدها على رأسي:

بسم الله عليك عسى منتب مريض.

انتبهت لنفسي.

ما صرت وزير.

مستغربة:

توك راجع من الجامعة.

ولا رئيس دولة.

بان الفزع على والدتي وهي تضع يدها على فمها.

اسكت ترى الجدران لها آذان.

ثم أردفت بحنان:

وش داعي ها لكلام وأنا أمك.

فنفخت صدري وضربت بيدي عليه متفاخراً:

أنا من اليوم الدكتور علي.

فسمعتُ صوتاً قادماً:

الدكتور علي.. يا ربي لك الحمد، ولدي بيصير دكتور.

---

(١) سمي: نعم.

نقلت أمي بصرها بيننا مذهولة:

إما أنا مهبولة[٢] أو استخفيت[٣].

فابتسم أبي:

الدكتور علي رشحوه للبعثة.

لوين وأنا أملك:

مشيراً بيدي كالسهم ناحية الغرب:

إلى لندن.

فهز يديه والدي مندهشاً.

غريب أمر هالعرب، يدرسون لغتهم عند غيرهم.

فقاطعته والدتي:

أجل نبي ندوّر[٤] له عروس.

فأشار إليّ:

هذا هو عندك إذا يبي يعرس منيب رادّه[٥].

فأصرت مبررة:

أجل تبغاه مثل ولد أبو ناصر، ما درت أمه إلا وهو يدخل عليهم بواحدة أجنبية لا هيب مسلمة ولا تحكي مثلنا.

---

(٢) مهبولة: مجنونة.

(٣) استخفيت: ناقص العقل قليلاً.

(٤) نبي ندور: نريد أن نبحث.

(٥) منيب راده: لن أقف في طريقه.

ضحك والدي:

هو اللي بيعرس مهوب أنا.

وبغيرة النساء.

وإلا عندك نية..

فقاطعتها لنزع فتيل الأزمة:

خلاص يمه شوفي المرأة اللي تناسب وتوكلي على الله.

طيب وش رأيك بمنيرة بنت أخوي إبراهيم؟

فاعترض والدي:

لا، لا أنا ودي أنه يأخذ الجوهرة بنت أخوي حمد.

فتدخلت لأمنع خلافاً أنا سببه وضحيته:

أنا ما أبغى من أقاربي.

فغضبتْ:

وش فيهن بناتنا، يهبلن ويذبن الطير من السماء(٦).

وأضافت:

واللي ما يأخذ من أقاربه ترى ما فيه خير.

فحاولت مداعبتها:

حتى أبوي.

فضحكت:

---

(٦) يذبن الطير من السماء: من فرط جمالهن.

دايم تحاول تعاندني؟!

فضحك والدي:

ولد أبوه.

وخلال فترة الاستعداد للسفر كان أهم موضوع على طاولة النقاش هو مشروع زواجي. وانقسم المنزل إلى حزب يطالب بتزويجي بابنة خالي الملتزمة دينياً أما الآخر فيفضل ابنة عمي أو أية فتاة أخرى بشرط أن تكون ذات أصل، وأخذ كل حزب يحاول استمالتي إلى صفه.

ترن.. ترن.. ترن.

آلو.

هلا علي.

أهلين أيمن.

مبروك يا علي.

الله يبارك فيك.

وبتروح لندن وبتتركنا؟

أنت وعمر محفورين بقلبي فوين ما رحت أنتم معي.

صمتنا لوهلة وكأننا نتأمل في الفراق المستقبلي فأيقظت الكلام مداعباً له:

لا وأزودك من الشعر ببيت.

خير إن شاء الله.

الوالدة حالفة[٧] ما أسافر إلا بزوجتي معي.

وعساك وافقت.

وظنك أبزعلها؟!

وشكلك حاطط عينك على واحدة ولا تبغاها تطير منك.

يا رجّال الحرمة عندنا مصنع لتفريخ البزران وغيره ما لها قيمة.

معترضا:

بس ولو اخترت لك وحدة تناسبك؟!

فاندفعت:

وشلون اختار وأنا لا أعرفها ولا أشوفها.. وحتى إذا تملكت ما تقدر تقابلها.

الله يهديك، تبغانا زي الغرب يصادقها ثم يتزوجها.

لا، بس أعرفها قبل ليلة الفتح التاريخي مهوب، إذا دخلت عليها لقيت قدامي شي مغطى بسواد مدري وش فيه.

فداعبني ضاحكاً:

أنت وحظك، ويمكن تصير رجّال.

وبنفس الحماسة والاندفاع:

والله يا أيمن إنها تقاليد غبية.

أسكت لا يكفرونك.

---

(٧) حالفة: أقسمت.

ما عليّ منهم اللي من الدين آمن به وغيره أنا كافر به.

وبطريقة لطيفة:

شكل بربرتنا بتطول والخسارة عليّ أنا اللي متصل.

أحسست بأني فعلاً قد اربكت عقل أيمن بأمور لا تعنيه:

أوه آسف، بس متى نشوفك؟!

أنا عازمك الليلة على العشاء.

وش داعي ذا الكلافة[٨].

أخو ويعزم أخوه وش فيها؟!

استسلمت.

الله يغنيك، الليلة وعدنا.

لم يكن الزواج بالنسبة لي غير توافق وتآلف محدد الأطر والمفاهيم بحكم ما ألاقيه من قيم تحوطنا. فكرت طويلاً في خطبة إحدى بنات العوائل الأرستقراطية ولكني تهيّبت المسألة. ربما الفوارق الاجتماعية، سترفضني بمنتهى البساطة...؟!

قلّبت الفكرة في رأسي طويلاً بينما أهلي منقسمون بين بنت عمي وخالي.

كأن أيمن كان يقرأ أفكاري وألقى حجراً نحو مياه عواطفي الساكنة:

(٨) الكلافة: المبالغة.

ليه ما تخطب بنت المنهبل؟

ابتسمت بسخرية ومرارة:

بترفضني أكيد.

وليه ترفضك؟ عشانها بنت المنهبل اللي يملك ملايين؟

موضحاً له:

أجل تبغاها تطلع من الخدم والحشم لبيت واحد طفران مثلي.

معترضاً:

لا يبغون واحد مثلك، تدري ليش؟!

ليه؟!

عشان تشوف حالها عليك.

بقهر:

يا رجّال، بعض بناتهم تلقاها مهيب وكالة.

ضاحكاً:

يعني ماشية واجد.

بغضب:

دام فيه ذيابه مثلك وسواقين أكيد بيمشون واجد.

معترضاً بسخرية:

صدقني كلنا نروح من الباب اللي ورى إذا صار اللي قدام مسكر.

ابتسمت:

خلنا نمد لحافنا على قدر رجلينا.

موضحاً:

يا أبو حسين اللي فيها خراب والله لو أن أبوها ما يفارق المسجد بتخرب.

مؤمناً:

صدقت. الهادي الله.

١٣

لم أرضخ لإغراءات ذوي القربى فقررت الهجرة إلى خارج حدود علم الوراثة، وقد كانت زوجتي حسنة التربية وهادئة الطباع فاختزلت عالمها في زوجها، فلا الثقافة ولا الفكر ولا الغربة أو الخروج.. ولا حتى الموضة أو السرير يعنيها، وفي عاصمة الضباب توثقت علاقتي بأبي باقر وصرنا نخرج في نزهات عائلية في الويك إند، ولم أدر أن خزعبلات المجتمع السعودي ستعشش في شقتي في لندن فاقتضى الأمر أن أستخدم حقي الذكوري بالديكتاتورية على زوجتي وعلى العادات.

حاملاً لوازم الرحلة:

يا الله.. يا نورة.

معترضة:

نطلع مع شيعه وش نبي بهم؟!

شممت رائحة تمرد وصرخت بغضب:

أصلاً نطلع متى ونروح لمن؟ هذي أنا أقررها مهوب انتي.

فرفعت رايتها البيضاء وأحنت رأسها للعاصفة. وفي تلك النزهة أحضر أبو باقر شخصاً قدمه لي على أنه أحد أقطاب المعارضة السعودية المقيمة في الخارج خوفاً من بطش الحكومة، وكان يكنى بأبي سلمة السني.

وفي تلك الليلة سهرت وأنا أفكر، مرة ضاحكاً ومرة متعجباً سني متشدد مع شيعي متعلمن؟! أتراها بداية لانزلاق صديقي الشيعي مع أولئك الأوباش وبالذات مع أبي سلمة ذلك الرجل الذي حيكت حوله الأساطير وأنه صاحب كرامات، فضحكت وأنا أقرأ ما كتب عنه في بعض المواقع النتية.. فقد اخترق جسده صاروخ ولم تنزل منه ولا قطرة دم، وتارة اصطدمت فيه دبابة وانفجرت ولم يصب بأذى.

وغيرها من الخرافات حول هذا الرجل الذي ليس مهماً عندي بقدر ما الطريق لتخليص أبي باقر من حبائل هذا الشيطان المريد؟!

وجدت أبا باقر خارجاً من مكتبة الجامعة:

أبو باقر.. لو سمحت أبغاك شوي.

يلتفت إليّ وهو يبتسم:

أهلاً أبو حسين.. آمرني وش بغيت؟!

ما يأمر عليك عدو بس ممكن نشرب كأس شاهي سوى إذا..

إذا شنو؟!

ما عندك شغل.

فجلجلت ضحكته:

هاهاها، كل الأشغال تأجل لأجل خاطر أبو حسين.

جلسنا في الركن البعيد الهادئ من كافيتريا الجامعة حتى نأخذ حريتنا في الكلام، وربما أيضاً لوجود عقدة داخلية لدى كل عربي اسمها (آذان الحيطان).

أمس اتصل بي الوالد ويسلم عليك.

الله يسلمك وياه.

وارتشف من كأس الشاي:

وش أخباره؟! وش أخبار أهلك ؟!

فجاوبته ناظراً إلى نقطة بعيدة لا أراها إلا في خيالي:

ديرتنا في خطر!

انتصب في جلسته وهو يحس بخوفي:

من وين ياي الخطر؟!

نظرت إلى كأس الشاي وكأني قارئه:

هاللي يدعون أنهم يحمون الإسلام وكل يوم إما مفجرين مبنى أو ذابحين آدمي.

أحسست بنظرات خوف من المجهول تطل من عينيه وهو ينظر إليّ:

صار شيء جديد؟!

وأنا أهز رأسي بحسرة:

أمس ذبحوا عسكري من عيال حارتنا.

وليه ذبحوه؟!

كلبهم أصدر فتوى بقتل كل من يعمل في الدولة من العسكريين.

وش قصدهم؟!

نرجع متخلفين ويصير حكمنا (طالباني).

فلوّح بيده بعفوية:

ما يصير هذا يا أبو حسين؟!

فانتهزت الفرصة:

طيب وش اللي جبته معك أمس؟!

ابتسم موضحاً:

أبو سلمة السني هذا أحد أقطاب المعارضة في الخارج.

بنفاد صبر:

عارف وش يصير، جزمة ولد جزمة، ولكن وش علاقتك به؟!

باستهتار لم أعهده منه:

يا حبيبي أترك لك بكل ديرة صاحب.

فأشرت إليه بيدي مستفهماً:

والمعنى؟!

لو استمرت الحكومة فأنا معها ولو عملوا الناس انقلاب فأنا تبعهم.

بغضب:

ما توقعتك غبياً لها لدرجة.

مستوضحاً:

أنا غبي؟

بإصرار:

غبي ونص، أجل، وش جَمّع شيعي مع سني متطرف؟!

فأشار بإصبعه إلى رأسه دلالة الذكاء:

المصلحة يا فهيم؟!

صدقني بتصير طريح فراشين[1].

ارتشف جرعة من الشاي:

ليه ما تسميها دهاء وحنكة.

تدري وش بتسوي بك الحكومة؟

وبسخرية مريرة:

بتعملني كفته.

وأضاف بتحدٍّ:

هذاك أول.. الآن فيه جمعية حقوق إنسان.

لا، بتقطع عنك المكافأة وبتطردك من البعثة.

---

(١) طريح فراشين: لن تنال خيراً لا هنا ولا هناك.

ثم أشرت إليه ساخراً:

وتصير متشرداً.

هز كتفيه:

طبيعي، بانضم إلى المعارضة مع أبي سلمة السني.

بغضب وأنا أجمع مذكراتي استعداداً للمغادرة:

مسكين يا جاهل والله إنك أقرب شاة للذبح[٢] بينهم

ثم أضفت ساخراً:

شيعي وطفران[٣]!

أحس بثورتي وغضبي وأنها لأجله، ولعله أحس بمنطقية كلامي فحاول أن يتجنب الصدام معي حتى لا يخسرني فصب عبارات ثلجية على نيران غضبي:

أبشر يا أبو حسين، اللي تبغاه بيصير وأنا عارف أنك ما تبي إلا مصلحتي.

ثم ربت على كتفي:

لكن صدقني نزوة وتعدي.

وأنا أهم بالمغادرة:

على الله تكون نزوة يا مراهق.

---

(٢) اقرب شاة للذبح: أي أنت الضحية القادمة.

(٣) طفران: فقير.

١٤

أتراها محاولة انقلاب فاشلة أم أنها حرب قد دقت طبولها، فالمنظر غير مألوف في محاجري.. حالات قصوى من الاستعداد الأمني، نقاط تفتيش وحواجز خرسانية ورجال أمن منتشرون. وتوقف بي التاكسي عند باب منزلنا ولكنني لم أرَ أثراً للحياة فيه فداخلني شعور غامض بالخوف على مجهول أحبه..

أخاف يا علي أهلك مهوب فيه.

بتفكير متردد:

وين بيروحون.. أكيد موجودين.

خلّ نروح عند أهلي ومن هناك نتصل على بيتكم.

وبتوتر:

يا زينك ساكته هالحين واقف عند بيتنا وأروح لبيتكم عشان اتصل

على أهلي.

أطرقت خجلاً من عباراتي الجارحة:

أقصد يمكن أهلك بالديرة وإلا رايحين لأحد.

وطغى صوت سيارة والدي على تبريرات نورة، ونزلت من التاكسي واتجهت إلى والدي مثل طفل تاه من والديه ونسيت كل شيء. أجرة السائق. حقائبي. حتى نورة.

فتساءلت بخوف مما سأعرف:

يا يبه وش فيك لونك ما جاز لي[١]؟!

تدخلت أمي مصطنعة ابتسامة شاحبة أحسست كأني أراها من خلف شيلتها:

أبوك ما فيه إلا العافية.

لا يا أميمتي قلبي ناغزني[٢] وفيكم بلى[٣].

التقت عيني بعيني والدي فحاول أن يتهرب ولكن تلك الدموع الكئيبة سالت معلنة أهميتها راشد ولد أخوي مبارك.

لا أعرف سر دموع طفرت من عيني وميل لوني إلى الشحوب وأنا أقول:

---

(١) ما جازلي: ما أعجبني.

(٢) قلبي ناغزني: هناك مكروه قد حدث.

(٣) بلى: مشكلة أو مصيبة.

وشلون.. مات؟!

صدَّ بوجهه عني لكي لا أرى مرارة دموعه:

مات مقتولاً!

بكيت وأنا أصرخ غير مستسلم للقدر:

آه يا هالحظ.. راشد يموت.

فحاولت التخفيف من مصابي:

افرح يا علي ولا تصيح وأنا أمك واحتسبه عند ربك شهيد.

أصابتني كلمة (افرح) بصعقة كهربائية أو غيبوبة وقتية فأوقفت مظاهر الحزن على وجهي لثوانٍ:

وشلون مات يا يمه؟!

ذبحوه هالإرهابيين.

فرفعت يدي للسماء وأنا أبكي فرحاً:

الحمد لله اللي جعل من أقاربي من يموت دفاعاً عن وطنه.

كانت وفاة راشد بمثابة السكين التي قطعت أوداجي فسالت دماء التحدي والتصدي لتلك الجرائم، فلم يكن بذلك الشاب الطموح أو من أصحاب الرأي، فقد كان خاملاً وكنت إذا رأيته ــ رحمه الله ــ عرفت كم كان فرويد محقاً حين قال: (إن أي تصرف يقوم به الإنسان يتأثر بأحد عوامل ثلاثة إما العوامل الوراثية أو العوامل التربوية أو العوامل البيئية) فكم من راشد سيقتل لأجل أفكار عششت في عقول مجانين؟!

ارحلي يا روح راشد فكلنا راشد، وسنسير على طريقه حتى نجتث تلك النبتة الخبيثة من أرض وطني أمطرت سماؤه علينا بالخيرات وسنروي ترابه وأشجاره بخليط من عرق الدماء.

١٥

استيقظت على صوت منبه سيارة أيمن وهو ينادي:

يا دكتور يا أبو حسين، تأخرنا على مولانا.

أزحت زجاج النافذة وداعبت وجهي شمس صيفنا الحارقة وأخرجت رأسي مع الشباك.

شوي.. شوي والله لو معك خط الشيوخ[١].

فضحك:

تروح للندن وإلا ما تروح، القروي طول عمره قروي.

فداعبته وأنا أدير ظهري:

(١) خط الشيوخ: رسالة الملك، وكان يطلق على رسالة الملك خط الشيوخ.

جايك يا أرسين لوبين.

وبسخرية يريد مناكفتي:

طيب يا آنسة إعراب!

فأخرجت رأسي من النافذة مرة أخرى:

لو سمحت، مدام إعراب.

بنفاد صبر:

إن بغى زفت إعراب، بس انهج علينا[٢].

ونحن متجهين بالسيارة إلى المسجد الجامع حيث يصلي الشيخ عمر بالناس إماماً وخطيباً كان عقلي الظاهر يمازح أيمن ويداعبه، أما الباطن فقد كان متوجساً خيفة من مجهول لم تلح له بوادر في الأفق، أيكون داء الأفكار التكفيرية القبيحة قد غزى عقل عمر النيّر فأزال نوره:

على كثر ما مزحت معي إلا أن بالك مشغول بالحيل.

فغمزت له:

وش دراك يا قارئة الفنجان؟

مشيراً بيده وهو يضحك:

ناظر أظيفراتك[٣] قضمتها لحد ما سأل الدم وأنت ما تدري.

---

(٢) انهج علينا: أسرع.
(٣) أظيفراتك: أظافرك.

وبالفعل فقد استقرت بعض بقع الدم على أجزاء من ثوبي.

ارتقى الشيخ عمر درجات المنبر وأنا ما بين مد كفاحي الذي أعلنته ضد الفكر الأسود وحذر من أن أخسر أحد أهم مصادر قوتي.

تبددت ظنوني المظلمة عند بداية خطبته، فأيقنت أنّ حقاً أبلج قد حان وقته.

وبينما نحن ننتظر خروج الشيخ من المسجد، شاهدت شاباً يبيع عسلاً عند بابه فأرغمتني ملكة التذكر لأتمهل بحثاً عنه في شقوقها.

عسل طبيعي.. قرّبْ الله يبارك فيك.

لاحظ أيمن شرودي وتركيزي في آن واحد:

وش بلاك تناظر هالمطوع كذا؟!

مفكراً:

يا خوي كني أعرفه.

إلا بلى تعرفه.

وش دراك؟!

مشيراً إليه:

هذا دلوعة بن جليعيد.

فأشرت إليه والذهول قد استبد بي.

تقصد مصعب.. وش اللي سوى به كذا؟!

رح سلّم عليه وخذ من الراس ولا من القرطاس.

فتقدمت منه وبادرته بالسلام:

السلام عليكم.

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

بكم العسل يا الطيب؟!

وهو يقدم لي عينة:

هذا كشميري درجة أولى بثمانين.

ثم يشير لأخرى:

وهذا عسل برسيم الله يبارك فيك بتسعين.

فقاطعته:

يا شيخ وجهك مهوب غريب عليّ.

وهو يعيد ترتيب قناني العسل:

يمكن شفتني عند مسجد غير هذا.

متظاهراً بالتذكر:

لا.. لا مهوب أنت مصعب.

تفحصني مستغرباً:

إلا بلى.

فابتسمت:

ما تذكرني؟!

وقبل أن يدخل حيز التفكير:

أنا علي رفيقك في الفصل.

خيّل إليّ أن ملامحه تغيرت للعبوس عندما تذكرني:

وأنت وش صار عليك يا أخ علي؟!

أبشرك ولله الحمد أحضّر للدراسات العليا في لندن.

عند الكفار؟!

وأنت وش صار عليك؟!

لمحت السعادة تطل من داخله:

الحمد لله على ما قدّر لي. فقد تركتُ الدراسة في مدارس هذه الحكومة الكافرة وذهبت للجهاد في أفغانستان وعندما عدت قررت ألا أستلم فلساً من أولئك الكفرة فانخرطت في التجارة.

فحاولت استفزازه:

ولكنك تتعامل بدراهم ورقية تملكها الحكومة.

بعصبية حادة:

هذا شيء استكرهنا عليه ولكن لن يدوم طويلاً.

وأنا أهمّ بتركه:

مَنْ كفّر مسلماً فقد كَفَر يا شيخ.

وارتفع لسانه بالسب:

أنت من صنائع الحكومة والغرب، وإذا مشيت وراهم فمصيرك النار.

فأدرت ظهري محاولاً السيطرة على أطراف ضحكة بانت بشائرها:

نار الحكومة ولا جنتك.

وهو يقذفني بحذائه:

الله يلعنك ويلعن الحكومة معك.

وسمعت أنه بعد هذه الحادثة قد قام بعملية انتحارية فمات شهيداً كما يعتقد.

١٦

ارتفع صوت يحمل حروفاً مكتوبة بحبر من الحقد على حبال الكلام: وأنت يا أخي مصعب سنوليك الخلافة في أرض الحرمين فما الذي ستفعله بها؟!

وبعد تفكير عميق:

سأمنع استخدام السيارات ونكتفي بالجمال.

فتساءل الصوت القادم من سواد الظلام:

ولماذا يا أخي؟!

لأنها من صنع الكفار. وماذا بعد يا أخي؟!

أي شيء لم يكن بعصر النبوة سأدمره.

بإعجاب مستفيض:

اختياري لك كان صائباً.

وأضاف متسائلاً:

وكيف سنجاهد الكفار؟!

فلوّح بسيف في يده:

بالسيف.

فاقتحمت الاجتماع لأتحدث فاذا بوجوه مظلمة وكريهة المنظر قد ارتدت ثياباً أفغانية رثة، وكنا في جحر مظلم عدا شمعة تضيء لنفسها لتتأمل ذلك المجنون الذي يوزع الهبات على أصحابه. ولم يثنني ذلك عن الكلام وأنا أرى سفراء الموت فقلت بسخرية:

تبغانا ندمر التنكولوجيا ونمشي على رأيك؟!

فرد بغضب:

هذا من التشبه بالكفار.

وبتهور:

يا خوي الكفار أبرك من أمثالك.

ارتفع صوته وازداد رذاذه:

أنت وأمثالك من العلمانيين لا بد أن تباعوا في سوق النخاسين.

وتدخل الزعيم وبهدوء:

بارك الله فيك يا أخ مصعب. وأسأل الله أن يكثر في الأمة من أمثالك.

فضربت بيدي على الطاولة:

الله لا يقوله.

فهجم عليّ مصعب شاهراً سيفه وهو يصرخ:

يا حشرة، تتطاول على الشيخ؟!

وهوى بالسيف على رقبتي:

بسم الله والله أكبر.

وعلا صوت آخر ومعه يده تهزني برفق:

علي.. بسم الله عليك الرحمن الرحيم.. وش بلاك؟!

فتحت عيني فاذا بوجه أمي:

الحمدلله أنه حلم.

بحنان واضح:

تعوّذ من الشيطان وأنا أمك وقم غسل وجهك وصلّ.

وأنا أنهض من سريري:

أعوذ بالله من شياطين الإنس والجن يا أميمتي.

وبَقِيَت داخلي جذور شك تريد أن تنمو وتصبح شجرة خوف كبيرة بذْرتها حلم مختبئ خلف أجفاني.

بانفعال:

تضحك يا أيمن مما قلت؟!

فغالبه الضحك:

أنت مسوي من الحبة قبة، وأنت كل اللي شفته يا أبو حسين حلم.

مستغرباً.. حالماً:

شيء لا يصدق.. في عصر التكنولوجيا وفيه ناس تبغانا نركب بعارين؟

وهو يمازحني:

وفي عصر الـ Fast Food ويبغونا نأكل لبن وتمر!

متسائلاً:

وين ظنك الخلل فيه أيمن؟!

أف يا أبو حسين، عشان حلم تقوّم الدنيا وتقعده؟!

رافعاً سبابتي وأنا أهزها في وجهه:

لعلمك فرويد يقول: إن ما نراه في أحلامنا هو مستقبل واقعنا.

ضحك وبسخرية:

هاهاها، قلّه آسف عزيزي فرويد، هالمرة أنت تكذب.

وهو يفتح باب السيارة قاطعاً حبال النقاش:

حوّل.. يا الله.

مستغرباً:

وش يخليني أنزل معك في دوامك؟!

بسخرية لاذعة:

خذ جولة تفقدية – طال عمرك.

تطنز[1] يا مس ماربل!

---

(١) تطنز: تسخر.

وهو يغادر مسرعاً:

على كيفك.

١٧

مر أسبوعان على عودتي إلى لندن ولم ألتق بعد بأبي باقر، فكلما هاتفته آملاً في لقائه وجدته يختلق الأعذار:

معليش حبيبي أبو حسين، باقر عنده حرارة وبوديه للطبيب.

معليش أبو حسين، عندي موعد مهم مع صديق خاص.

معليش ومعليش ومعليش ومعليش.. مللت من تكرار هذه العبارة وسماعها تصب في مجاري أذني وصرنا كطرفيّ مغناطيس، بمقدار ما ينفر مني كان يلتصق بجماعة المعارضة وبصديقه الجديد أبي سلمة السني. ولم أحتمل هذا الوضع كثيراً فقد كنت أعتبره هو (أيمن الغربة) نعم النسخة الغربية من أيمن ذاك الصديق النادر وجوده.. هو الـ Cope لمس ماربل، فقررت أن (أقطع عرق وأسيح دم) كما أسمعها في المسلسلات المصرية. أحببت أن أقطع المسافة

بين سكني ومنزله سيراً على الأقدام وخاصة أن الجو قد حجبت شمسه غيوم مؤدبة تريح الأعصاب وتزيد قدرتي على التفكير، وأشد ما كنت أخشاه ليس أنني لن أجد أبي باقر أو لن يكون في استقباله حرارة لقاء الأصدقاء، ولكن الخوف من أن أقع في نطاق دائرة سحره فقد وهب القدرة - على الأقل عندي - على قلب الحقائق بكلام ناعم وأسلوب ساحر.

حتى إنني امازحه فأقول له:

أنت ممنوع من السفر إلى الفاتيكان..

فيستغرب:

ليه؟!

فأضحك:

لأنك لو سمع البابا كلامك لأسلم.

وصلت إلى منزله وفتح لي ابنه باقر ودعاني إلى الدخول ريثما يرتدي والده ملابسه.

حي الله من يانا؟ مضيّع وإلا مسير؟

فجاوبته بسخرية:

لا بْنشر بي[1] كفر السيارة عند بابك.

وهو يضحك:

كفر سيارتك وش ماركته؟!

---

(١) بنشر بي: انفجر إطار السيارة.

ليه؟!

أبوجه لهم خطاب شكر على إطاراتهم الخايبة اللي خلتك تزورنا.

أردت نقله من جو المرح إلى قليل من الجدية:

أبو باقر، تسمح تسمعني شوي؟!

أحس بجديتي وهو يتعدل في جلسته:

اتفضل يا أبو حسين.

وبصوت خفيض لأجعله أكثر تأثيراً:

من رجعت للندن وأنت تتهرب مني؟!

صمت لوهلة فأضفت:

هو أنا قصرت بشيء؟!

ارتبك وأخذ يدير رأسه:

لا، بس شوية مشغوليات.

قاطعته وأنا أشبك أصابعي ناظراً إلى الأرض لأجنبه حرج الموقف:

أبو باقر.. أنت تكذب.

أخذته الدهشة والمفاجأة فأضفت:

أنت جالس تجتمع بكلاب لندن حقين المعارضه..

قاطعني وبهدوء:

لا تسبهم قبل ما تسمعهم.

وش ترمي له؟!

خذ أفكارهم.. ناقشهم بعدين حكّم عقلك.

لا هذولا ناس يبغون حكمنا (طالباني).

أجل أنت معجب باللي قاعد يصير في البلد.

الحمد لله أمن وأمان.

لوح بيده علامة على عدم الرضا:

روح يا شيخ..

وأضاف:

أموال تسرق وبطالة وغلاء معيشة.

يا خوي ظروف المنطقة.

ممكن أصدقك لو هذا شمل الجميع.

كيف؟

تذكر العام يوم حنا بالشانزليزيه؟

وش دخل باريس بالسعودية؟

تذكر ذاك البزر اللي معه مائتين بودي جارد وثلاثمائة مرافق.. علمني من وين جاب الفلوس؟!

أبوه غني.

محذراً وهو يشير بإصبعه:

أنت عارف وش منصب أبوه؟!

من حصل شي يستاهله.

أنت من أغنى الدول وناس تسرق.

فقاطعته بغضب:

والحل إنك تصير معارض!

لأن كل شيء في انحدار.. القيم والمثل ودخل الفرد، وما يرتفع إلا أرصدة الحرامية والأسعار!

وأنا أحاول إقناعه:

بس المفروض اللي يعارض يكون هناك داخل الوطن.

وهو ينفث دخان سيجارته:

وتتوقع ما بيودوني ورا الشمس؟

ما به شي اسمه ورا الشمس.

وبسعة بال لإيضاح صورة قاتمة:

أبو باقر، حنا نبغى معارضة ولكن معارضة صحية.

أش تقصد؟

لو أن أبوك مدمن مخدرات ترضى إنه يموت؟!

لا أكيد بعالجه.

وأنت طبعاً ما ترضى أحد يقول له يا مدمن؟

صحيح.

ابتسمتُ:

حنا نبغى معارضة تشافي مريض وما تقتله.

تقصد نعارض الحكومة في العلن ومن داخل الوطن؟

إيه هذا قصدي.

لكن ما فيه حرية رأي.. أو صحف معارضة أو أي شيء!

كل شيء يبدأ من الصفر.

ثم أضفت وأنا أتذكر أهلي ووطني:

وما في الدنيا أرض أحن عليك من وطنك.

١٨

هناك أخطاء تحدث في حياتنا ونحاول ألا نراها ملتصقة في جدران ذاكرتنا، وعلى النقيض منها أمور وحماقات قمنا بها قد لا نجد مبرراً مقنعاً لمعاشرتنا الخطيئة إثرها، وإذا نفث السحر وماتت صيغ الرفض في قواميسك وركبت قافلة المعارضة وغدوت من أقطابها فتصير في مركب الحيرة وتتلاعب بك موجة خوفاً ممن خنتهم وموجة أعداء لوطنك يدعونك إلى خيانته وهو سائر بك إلى المجهول.

بعد أن ألغت الحكومة منحتي، وغدت بالنسبة لي ولأسرتي الصغيرة الغريبة محنة..

علي.. علي قم.. شف علاج للبنت.

علي.. البنت بتموت بين يدينا وحنا نتفرج.

لحظتها كنت أتظاهر بالنوم وأسمع بكاء ابنتي ومع كل صرخة بريئة

منها ينقطع وريد أو شريان في جسمي؟!

أدركني يا رب.. ليس معي لا استرليني ولا يورو.

صرت هائماً في الشوارع اللندنية لا أعلم من أنا؟! أهو هروب من مواجهة الأزمة إلى الحيرة، ولم أدرِ ما الذي فعلته قدماي المجنونتان.. أهي صدفة أم غريزة حنين إلى وطن حرمت منه؟!

نعم هذا هو بعينه منزل سفير السعودي في دنيا الضباب. وقفت أمامه واجتاحني الذهول والهم فأخذت المجنونتان في التراقص فكلما تقدمت الشجاعة منهن للأمام خطوة أقسمت الأخرى يمين الطلاق ورجعت خطوة أخرى، أأقف لأعلن انهزامي واستسلامي وخضوعي وعودتي إلى حظيرة الحكومة مقابل بضعة جنيهات لعلاج ابنتي؟

أتباع القضايا من أجل حفنة من الورق؟ ودلفت إلى غابة من الأمل بحثاً عن شمعة ألعن بها الظلام فلم أجد سوى أبي فراس وحيرته فأخبرني أنهما أمران أحلاهما مرّ.

فتقدمت لأطرق الباب ولكن هاتفاً داخلي دعاني:

أتعتقد أن الناس ستحترم من يبيع قضيته بالمال؟

فتنازلت عن عيني إكراماً لقضيتي التي آمنت بها ولن أكترث لعدالتها.

عدت أدراجي ولا أدري كم مضى من الوقت وكم من الأيام.. وقد تكون ذاكرتي تبرعت مشكورة بطمس تلك اللحظات المؤلمة. والتي أثبتت أن علي حين الأزمات يفر كالجرذ المذعور من الغرق

علي.. علي.. حمد الله على سلامتك.

بذهول بارد:

وش فيكِ يا حرمة.. كل ما دخلت البيت قلت كذا؟!

باستغراب:

لك يومين غايب ولا تبغاني أخاف عليك؟!

متذكراً الغياب ناسياً السبب:

آه يومين.. يومين وأنا غايب!

ثم حركت يدي مستفسراً:

ليش غبت؟!

بارتباك:

علي أنت مريض.. فيك شي؟

وأنا أستلقي على المقعد:

لا.. ما في إلا العافية

قالت وهي تتفحصني خوفاً من ألا أكون أنا:

أصلح لك شي تأكله؟

بتعب وانكسار:

لا، أبي أرتاح شوي

بحنان:

ليتك تقوم تنام بغرفتنا.

******

سخرت من نفسي كثيراً وأنا أرى الرقم ذا الست خانات قد أطل برأسه عندما كنت أقوم بإحدى العمليات المصرفية قبل عام بالضبط. هربت من البيت لعدم قدرتي على دفع أجرة الطبيب فما أقذرك من دنيا! فأنا الرجل الثاني بعد فضيلة الشيخ أو كما يحلو له أن يدلع نفسه.. (رئيس دولة جزيرة العرب في المنفى).

ـ الليلة يا علي عندنا اجتماع مع أحد الأصدقاء.

وعندما يطلق لفظ صديق فمعناها أنه من الداعمين للحركة.

وفي المساء التقينا على طاولة العشاء في منزل فضيلته وكان واضحاً أن هذا الصديق ينفق على الحركة بسخاء الحاقد.

ـ يا شيخ ترانا حولنا لحسابك المبلغ اللي طلبته.

يضحك الشيخ:

ها.. ها ما تقصرون يا عمنا ولحم اكتفانا من خيركم.

وبمجاملة مملة:

أنت الخير والبركة يا شيخ

ما سوينا غير واجبنا.

فيضحك الداعم ساخراً:

واحنا وش نبي غير أنهم ينهشون في لحم بعض.

بحقد وغدر متوعداً:

توك ما شفت شي.

استمريت في حضوري لاجتماعات اللئام، فمرة مع تاجر أسلحة لا

يهمه إلا الخراب أو رئيس مجلس إدارة إحدى شركات النفط أو رئيس مخابرات دولة معلنة الود بالنهار شاحذة خنجر غدرها بالليل و... و... و... و...

ويتكاثر الذئاب ووطني يمد يد المحبة والسلام لهم، ومع كل ذلك لم تنقطع علاقتي بروحي، فقد كنت أتواصل مع أيمن الذي غدا أرفع مسؤول في مجال مكافحة الإرهاب هناك عبر وسيط يقيم في إحدى الدول الأوروبية.

وكنت أزوده ببعض الأمور التي ربما تحدث في البلد، ولم أجد تبريراً لخيانة الخيانة فخنت وطني معهم وها أنا أخونهم لتبقى رايتك مرفرفة في سموات المجد.

أيعتبر أيمن خائناً عندما نصحني مراراً بعدم العودة لعرضي؟[1] ولو انتهى الأمر بأن أرى الدنيا عبر القضبان لهان في سبيل أن أشم هواءه الصعاب غير.. آه.. آه مما قد يحدث لي من تنكيل وتعذيب من عبدة الحكومة.

انتبه يا أبو حسين، ترى بعض الروس الكبار مو راضين عليك.

وأنا منهمك في مطالعة «التايمز»

وش سويت لهم يا أبو باقر؟!

عشانك أخذت مكانهم وصرت الرجل الثاني في الحركة.

نظرت إليه وابتسمت:

---

(١) لعرضي: لوطني.

وأنت معهم وإلا معي؟

ضحك وهو يردد بلهجة مصرية:

وراك.. وراك مطرح ما تروح وراك.

نظرت نحو الأفق الذي تحجبه عني ناطحات سحب لندنية:

ألقاها من الحكومة وإلا من المعارضة؟ لا أنا مرضي هنا ولا هناك.

وأنا أرفع يدي:

أعمل إيه يا ربي!

ضحك بقوة وهو يمازحني:

انتحر يا حمار.

ازدادت قوة المعارضة وفرش لنا السجاد الأحمر وعزف النشيد الوطني.

فتذكرت مقولة لوالدتي وأنا أطالع صورة فضيلته مع أحد الرؤساء الغربيين (إذا أراد الله على النملة ريشة)[٢].

(٢) إذا أراد الله على النملة ريشة: إن النملة عندما ينمو ريشها فستموت

١٩

لماذا شمس لندن سوداء، ومساكنها قد اتشحت بالسواد، وساعة بيج بن لماذا عقاربها تذرف دموعاً من الدقائق؟! ما الذي بدل حال «التايمز» وجعله يجري بالدمع عوضاً عن الماء؟! ولماذا الصمت يبكي بصمت؟!

أكاد أختنق. حتى الهواء لا يريد أن يتحرك! إذا كان إضراباً فهذا ممنوع قانوناً، وأما الحزن فمسموح به إنسانياً.. لأجل من تبكون؟!

الراحل الكبير أم مواساة لابنه المعارض الحقير.. شكراً لكل دمعة ذرفت من أجل أبي ولكل نظرة حزن ملأت سماء لندن بالأمل.

آه يا أبي، رحلت بصمت ولو بكاك العالم بأسره قروناً فلن يوفوك حقك لأنك رفضت أن تكون دمية في عالم من العرائس تحركها

أيدٍ ملوثة بعرق الفقراء والمهمشين، وحتى لو أسندوا لك دور البطولة فسترفضه فأنت لا تجيد التمثيل.

أبي، قد تكون على هامش التاريخ ولكنك أبحرت بي في جغرافية البشر حتى... وضعت القلم جانباً وأسندت رأسي إلى المقعد وأخذت أهرش في صدري إذ كنت في حالة حرب ضروس مع الكلمات والأفكار، فأحياناً كنت أنتصر فأعود وأنتزع قلمي من غمده وغالباً أرفع الرايات البيضاء وأغادر إلى فراشي، عدا أن هذه المرة مختلفة فلأول مرة منذ وفاته أمسك الورقة والقلم لأكتب تأبينه.

نادتني برفق:

علي.. علي أصلح لك قهوة؟

نظرت إليها وكأن عباراتها طوق نجاة من رمال التفكير المتحركة:

إيه الله لا يهينك.

******

لملمت أوراقي وأخذت أعبث بقنوات التلفزة حتى توقفت عند مسلسل (الزير سالم) وكان المشهد للبطل وقد طعن في السن وهو يبكي أخاه، وبالرغم من أنني أخذت شهوراً وحزني على أبي بركان يتفجر في أعماقي ومنظر ذلك الزير وهو يبكي أخاه يتمثل أمامي فأتدفق دمعاً.

كانت الجلسة معتمة، فبمقدار ما كانت الدنيا سوداء في عيني ازدادت سواداً في هذا المكان، لكنهم أخبروني أن جلسات تحضير

الأرواح تكون أجواؤها كأفلام الرعب الهوليودية ولم يكن (وليم دي) محضر الأرواح الأشهر، يشبه السحرة والمشعوذين الذين نراهم بشعور هيبيزية ولحى كثيفة وعيون لغتها الشرط، بل بالعكس فقد كان وسيم الطلعة من تلك النوعية التي تقع النساء في غرامهم.

سيد وليم، أرجو أن تحضر لي روح أبي المتوفى.

فابتسم:

لدينا اليوم تخفيضات فيحق لك اختيار أرواح أخرى مع روح والدك.

بدت عليّ علامات الاستغراب ولكنه لم يمنعني من السؤال.

ولم هذا الكرم؟!

وهو يضحك:

اليوم يصادف ذكرى زواجي من حبيبتي بيلانا.

أسأل الله أن يبارك لكما هذا الزواج.

بأدب رفيع:

شكراً يا سيد علي.

وبرجاء فيه الكثير من الخنوع:

أريد والدي أولاً سيد وليم.

والهدية؟!

وبلهفة العشاق:

بعد أن أسد جوعي لوالدي سأقبل هديتك.

مرت الدقائق ثقيلة وكأن جبلاً قد وضع على صدري وأصبح العرق يلهث لهثاً على جبيني.

ـ ولدي علي، معقولة أشوفك بعدما مت؟

برهبة وذل وبكاء:

أنا اللي مت يا بوي.

وحاولت أن أقترب منه وأضمه

فأشار بيده ليوقفني:

ودي أحضنك وأنا أبوك بس قالوا لي إذا لمسته بترجع لمكانك.

بخوف من رحيله:

يكفيني أشوفك.

وشلون أمك وإخوانك؟!

بخير الله يسلمك بس..

فقاطعني:

إيه يا علي إلى هالحين وأنت مع هالسمرمد[1].

والله يا يبه ودي ارجع بس أخاف من سجون ورا الشمس.

وهو يعبث بمسبحته:

سجن في بلدك ولا جنة في الغربة.

فحاولتُ تغيير مجرى الحديث:

---

(١) السمرمد: المنحرفين.

من شفت بذاك يا بوي؟!

فابتسم:

منتب مصدق؟!

عمرك ما كذبت يا بوي.

مكملاً حديثه:

جاري من شمال غاندي، وجاري من جنوب محمد الشعراوي والخميني، وشرق مني البابا يوحنا بولس ويسير علينا أحياناً بن لادن..

ثم نظر إلى ساعته:

هالحين تلقاهم مجتمعين.

فابتسمت:

وش رأيك نخليهم يجون(٢)؟

مداعباً:

إن جو يبي لهم ذبيحة(٣).

باستجابة تامة:

أنت تأمر.

لبى جيران والدي دعوتي وبدا واضحاً أن الألفة والمودة قد تمت بينهم. وأشار إليّ والدي وقد فاحت روائح الزهو:

هذا ولدي علي.

---

(٢) نخليهم يجون: ندعهم يأتون.

(٣) يبي لهم ذبيحة: يحتاجون لعمل وليمة لهم.

فداعبني الإمام الخميني:

هذا مسمى على الغالي.

فنظر إليه غاندي بهدوء ووقار:

دع عنك تلك الأفكار الملوثة للجو.

فتدخل الشعراوي موضحاً:

يقصد أنه مسمى على جده.

فنظرت إليهم جميعاً وابتسمت بمودة:

لقد سماني والدي على أبيه.

فضحك البابا بصوت عالٍ:

هاهاها.

فاقترب منه الشعراوي هامساً:

وش بلاك فشلتنا مع اللي جاي يزورنا من الدنيا؟

فالتفت إليّ قداسته:

لا تواخذني يا وليدي أنتم تذابحون في الأرض وحنا هنا محزونين ونأسى لكم.

وليه ما نصير مثلكم؟

فتقدم نحوي غاندي:

ودّنا أنكم تصيرون مثلنا ولكن عندكم ناس مهبّل[٤].

(٤) مهبّل: مجانين.

فهز الخميني رأسه مؤمّناً:

أي والله مهبّل.

فسألني البابا:

هل ما زال التطرف والإرهاب موجوداً لديكم؟!

وعندما هممت بالإجابة تدخل بن لادن ونظرات الشر تنفث سمومها وهو يشير بيده مهدداً:

هذا هو الجهاد.. ولكن يا ويلكم ويا سواد ليلكم..

بهدوء ووقار مخاطباً بن لادن:

تأدب أيه الرجل فأنت تخاطب البابا.

فنظر نحو مصدر الصوت وبغرور وشر:

الكفر كله ملة واحدة أيها الهندي الحقير.

فلاطفته محاولاً السيطرة على زمام الأمور:

وش رأيك يا شيخ أسامة لو تحاورنا معهم وحاولنا إقناعهم؟!

فصرخ:

لا تفاهم مع هؤلاء الكفار.

وأنا ازداد تقرباً منه:

ولكن يا شيخ لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْر النعم.

فأطرق وسكنت شياطينه:

آه كلمة حق أريد بها باطل أيها العلماني.

فأشرت إلى ذلك الشيخ الجليل:

هل تعرف هذا الرجل المبارك؟!

وبغرور وحقد:

ومَنْ يكون؟!

الشيخ محمد الشعراوي.

فقاطعني بعصبية:

لا تدنس أذني بسماع اسمه حتى لو كان ابن تيمية.

وباستغراب لذكره ابن تيمية:

ولماذا؟! ألم تأخذ فتواه التي قال فيها بالتترس حجة لقتل المستأمنين؟!

فضحك ساخراً:

يا أيها العلماني الزنديق، تعلَّم أن تأخذ من كل شيء ما يخدم مصالحك.

فقاطعته:

ولكنك تخدع الناس باسم الدين؟

فقاطعني الخميني:

يا أسامة أنت بتصرفاتك تشوه سمعة الدين.

فأشار باحتقار نحوه:

أنت أكثر من شوه سمعة الدين يا رافضي.

فتدخل غاندي:

احترم سنّه يا فتى.

فأشار:

كفار.. كلكم ملحدون.

وهنا تقدم الشعراوي وخاطب الجميع:

أريد أن أوضح لقداسة البابا والسيد غاندي والإمام الخميني وبقية الحضور، فالذي سمعتموه من هذا السفيه لا يمثل الإسلام، بل هو دين رحمة وتسامح وسلام.

فقاطعه بن لادن:

اصمت يا عبد السلطة.

فضحك الشعراوي:

وأنت ماذا نسميك...؟! مولانا أسامة!

فزمجر وغضب يريد أن يهجم على الشعراوي والخميني وهو يصرخ:

سأتقرب إلى الله بدمائكم.

ثم تعالت صرخته:

آه قتلتني يا كلب...

فإذا بوالدي قد غرس سكيناً في قلبه وهو يبكي:

لقد قتلت الشر.. قتلت الشر.

٢٠

دعاني فضيلته لقضاء سهرة رئاسية حمراء، وهذه عادته كلما أصاب التضخم رصيده السويسري.

وهو يحتضن فتاته وقد استبد به السكر:

يا علي خذ أي بنت.

ويقبلها:

إلا حبيبتي شيري.

بغنج:

أنا حبيبتك؟!

يرفع يدها ويلثمها:

لأجلك أبيع قضيتي

ثم يضحك بجنون.

أصلاً أنا ما عندي قضية عشان أبيعها.

ثم يدفع فتاته ويضرب الكأس وهو يتراقص:

أي قضية نهد قحبة أبرك منها ما تسمى قضية.

ثم يضحك في سكر:

تسمعين هالحمير وش يسموني.. الشيخ.

هاها الشيخ.

فتداعبه:

أنت شيخ.

ثم يشير بإصبعه الأوسط:

شيخ طل اللي تلعب عليه قحبة مثلك.

ثم أشار إليها بالمغادرة:

فلنذهب إلى السرير لنتباحث في أمور دولتي.

أضأت الأنوار وأشعلت التلفاز وبالقرب مني صديقتي سونيا

فمازحتني:

يفرقنا الدين والسياسة ويجمعنا السرير.

ما يفرقنا اليوم قد يجمعنا غداً.

فضحكت وهي تقبلني:

لا يهمني ما يجمعنا المهم أن نجتمع.

وأنا أشير لما تبثه قناة CNN:

هذه المظاهرة حدثت اليوم.

وهي ترتشف كأسها:

نعم.. لأجل ضحايا الحروب.

وياعجاب:

انظري للصلبان والأهلّة والقلنسوات ما أجملها حين تتعاضد هنا

ولكن هناك في بلادكم مستحيل.

رفعت بصري للسماء لأستشرف المستقبل:

مستحيل فعلاً

فنهضت وهي تجرني:

فما رأيك لو تعاضدت القلنسوة مع الهلال الآن؟

أين؟

وهي تشير لغرفة النوم:

هناك على السرير.

٢١

كانت الاضطرابات السياسية في السعودية قد بلغت أوجها فعمّت البطالة وغلت المعيشة وارتفع صوت الشعب مطالباً بالحياة. وفضيلة الشيخ يتزعم حكومة المنفى والتي كوّنها بمباركة غربية. والحكومة السعودية صارت لا تقبل الإملاءات الغربية ولا تستسيغها، فقدّر الخبراء الغربيون أن الميت أصبح يفسو، ولأهمية الدولة الرابضة على كنوز من النفط فلا بد أن تغادر هذه الحكومة وإحضار أخرى عميلة، وبما للبلاد من طابع ديني فلم يجدوا خيراً من فضيلته ليكون على رأس الحكومة القادمة وبالذات أن أرقام شفرته السرية مفتوحة بينت وكأس.

بدأت البوارج التابعة للتحالف الغربي بالاستعداد لحرب يشيب من هواها الولدان وانتهج إعلامهم مبدأ الشحن والتعبئة ضدنا، وبدأ نباح الكلاب يرتفع فهذا من دولة معادية وذاك من أخرى تطلب ود

سيدهم الدولار، وتلك من منظمة حقوق إنسان وآخر معارض خائن أصابت حساباته السمنة وكلها تنبح ليمنحهم ربهم القابع في البيت الأبيض رضاه وبركته، وغدونا نحن وفضيلته بيادق شطرنج يحركنا لاعبو الاستخبارات التابعة لدول التحالف وفق هبوب رياح مصالحهم.

وفي آخر اجتماع قدم السيد جورج قائمة بأسماء حكومة فضيلته وبلهجة أمر متغطرسة:

غداً تقرأها في مؤتمر صحافي بحضور أركان حكومتك.

وبارتباك:

ولكن الله يعافيك يا سيد جورج.

وبطريقة لا تقبل النقاش:

نفذ وإلا غيرك مليون.

وبذلّ وتهاون:

أبشر.. أبشر بس لا تهونون أو تزعلون.

عدت إلى البيت متعباً فطمعت أن أطرده بكنزي الثمين والذي لا تعدله عندي ثروة.

فأوصدت باب غرفتي وخلوت إلى نفسي وأخرجت تلك الآنية التي هو بها وسكبته على السرير وأخذت أقبله كالمجانين، ولولا خشيتي أن أفقده لأكلته، ورحت في سبات فليس أحن عليك من تراب وطنك حين تعانقه.

سمعت صوتاً يشدو:

وطني الحبيب وهل أحب سواه

منذ الطفولة قد عشقت ربوعه

إني أحب سهوله ورباه.

فناداني صوت أمي:

يا علي، الطائرات ستدك أرضك وعرضك وتقتل أهلك، أحبابك.

فقاطعها صوت والدي بغضب:

يا علي قد قتلت الشر لأجل أن تغني طيور السلام.

ففزعت من سباتي وصدى عبارات والدي تتردد في أذني.

قتلت الشر.. يا علي.. الشر.. يا علي.. الشر.. يا علي.. الشر

فخرجت من معتزلي منادياً:

نوره.. نوره.

فجاوبتني من بعيد:

نعم.. يا علي أنا في المطبخ.

بإصرار وحزم:

تعالي ونادي العيال.

فقبلتها واحتضنت أبنائي والدموع طافحة على خدي:

نوره تأخذين الأولاد وتروحين لسفارة السعودية في باريس.

متى؟!

الآن ما فيه وقت.

وهي مستغربة:

طيب ليه؟!

وأنا أهم بالمغادرة:

الوطن نادى ولا بد من تلبية ندائه.

رتبت جميع أموري وجهزت كل شيء عبر مجموعة من المخلصين الذين تجري في عروقهم دماء عربية ولو لم يكونوا من تلك الأصول.

******

حضرنا المؤتمر الصحافي وكان فضيلته قد أفرط في منادمة كأسه ولثم قدمي غانيته فلم تقو قدماه على حمله.

فتقدم السيد جورج مخاطباً وسائل الإعلام:

إن سيادة الرئيس الشيخ مريض لما يراه من معاناة يومية يكابدها أبناء شعبه وسيقرأ البيان دولة نائب الرئيس السيد علي.

تقدمت من المايك مرتدياً زياً عسكرياً.

يا أيها الشعب البريطاني.. يا أيها الشعب الأميركي.. ويا شعوب العالم أجمع إن كل سكان بلادي يحبونكم ويمدون إليكم أيديهم بالسلام والمحبة، ولقد أجلت النظر كثيراً فيما حدث لكل بلاد غزوتموها.. هدمتم المنازل.. وقتلتم الأبرياء حتى السجناء الأبرياء.. أضعتم حقوقهم فقلت لنفسي:

أبلادي أعز عليكم من تلك الدول؟!

فقد بلغت الدهشة من الحضور منتهاها والسيئ جورج غادر القاعة غاضباً وبدأت تطير أحلام الدولة مع سكرته.

فأكملت وأنا أرفع جواز سفري السعودي.

وها أنا سأعود إلى وطني وليتلقى صدري أول صاروخ يريد أن يصيبه بسوء.

فوطني قد ناداني وسأعود إليه ملبياً.

وأنا أشير للإعلاميين:

هل هناك أسئلة؟!

سيد علي، ألا تخاف من الاعتقال والتعذيب في بلدك؟!

فابتسمت ساخراً:

سجني في بلدي أحب إليَّ من جنة الغربة.

ـ سيد علي.. هل مرض فضيلته خطير جداً؟!

فضحكت وأنا أعرض لهم بعض الصور:

لا ليس كثيراً غير أنه أسرف في الليالي الحمراء.

سيد علي..

فقاطعته وأنا أشير إلى ساعتي:

عذراً فقد تأخرت على الطائرة المتجهة إلى بلدي.

وأضفت:

ولكنني أعدك بمؤتمر صحافي بعد انتصارنا على الكائدين المتربصين به.

وأثناء توجهي إلى صالة المغادرة في مطار هيثرو سمعت صوتاً أحبه كثيراً منادياً:

أبو حسين.. أبو حسين.

فالتفتُّ بفرح:

هلا أبو باقر، وش جابك؟!

وهو يكفكف دمعات هربت من سجون الكبت:

أبو حسين، حب الوطن مو لكم يا السنّة، حنا بعد يا الشيعة نحب وطنّا.

٢٢

ونحن في الطائرة المتجهة إلى وطني أحسست أن المسافة بين الدول لم تعد تقاس بالأميال ولكن بالأعوام. صحيح أنه بعيد جداً عن لندن غير أنه صار هذه المرة أبعد بكثير. وهجم بصري على أبي باقر فهيئ لي أن شعره صار أبيض وأحدودب ظهره، وحتى الطائرات غدت تمشي الهوينا.

وبشعور ما بين الخوف والطمأنينة:

ظنك يا أبو حسين المباحث بيتركونا؟

فوضعت كفه ما بين راحتيّ:

ما عليك، سجنك في بلدك عزّ.

كل شيء، أجل كل شيء.. مدرج المطار وسلم الطائرة والصالة.

الموظفون، بقية الناس، الشوارع، الهواء، سمائي.. وأرضي وكأنها فرحت مستبشرة بعودة ابن ضال إلى حضن أهله الدافئ. ولم أفق من تخيلاتي إلا على صوت موظف الجوازات:

يا أستاذ علي أسفرت وأنورت أرض الوطن برجعتك.

الله يسلمك.

بحماسة:

يا خوي بيضت وجيهنا ودقيت خشوم[1] الغرب في ديرتهم.

وبسرور:

يا رجال أي سعودي ممكن يسوي أكثر من اللي سويته.

وعندما خرجنا من المطار فإذا بمئات من السعوديين قد تجمعوا وهم يحملون لافتات وعبارات ترحب بنا، فلم أملك إلا أن أرد على هتافاتهم ونظرات الحب والامتنان التي طوقنا بها بدموع رقراقة. وتزايد الإعجاب الشعبي بنا، وزاد ذلك أن الصحف تناقلت نبأ مقتل الشيخ على يد أبي سلمة السني والحكومة صامتة فلم تعتقلنا وتزج بنا في سجون بها وقت واحد وفصل واحد ويوم واحد ولم تكافئنا على ما قمنا به ولم تسألنا عن الماضي أو تبد نظرة إعجاب تجاهنا أو حتى عبارات غزل عبر بعض صحفها.

******

(١) دقيت خشوم: انتصرت عليهم وأهنتهم.

علي.. علي أنزل وأنا أمك كلّم التليفون.

من هو؟!

والله وأنا أمك ما قال لي.

أبشري جيتك يا أميمتي.

تناولت سماعة الهاتف:

نعم.

وبصوت مبرمج آلياً:

السيد علي.

نعم معك.

معك الديوان الملكي.

ونبرة صوت مستغربة:

عسى ما شر؟!

علت ضحكة خفيفة قبل أن يقول:

الملك يبغاك تقابله اليوم.

بارتباك واضح:

إن شاء الله.. بس متى؟!

وبنفس الصوت المبرمج:

الساعة السادسة تكون عندنا.

أغلقت الخط وقد تدلت عناقيد التشاؤم من كروم التفاؤل، فلا أنا

بقاطف العنقود ولا معتني بالكرم. واستبدت بي الوساوس والهواجس.. لا مخبر ولا ضابط ولا حتى وزير.. الملك مرة واحدة، الظاهر أنك يا علي مرض مستعصى ولن يقدر على استئصالك سوى الملك، كيف سيستقبلني سيادته، وهل أنا مجنون لو فكرت أنه سيأخذني في حضنه فيقول لي:

حمد لله على سلامتك يا ولدي.

فأحس بتأنيب الضمير فأقول:

سامحني يا والدي.

******

وصلت الديوان الملكي وقدماي بالكاد تحملاني، وكلما حاولت أن أتقدم أعادني مغناطيس الأمان إلى الخلف فتخيلت نفسي في كل الأوضاع المرعبة فمن سيلقاني.. عشماوي؟ أم سيحتضني منكر ونكيرا! بل تمادى عقلي وبدعم مباشر من شيطاني وشعرت وكأني أسير على شفرة الصراط، وكلما فتح باب وقيل لي ادخل ظننت أن أبواب الجحيم قد شرعت حتى وصلتُ إلى الباب الأخير فبلعت ريقي ولهث عرقي وتراقصت ركبتي على أنغام أسناني.

فتح الباب وصدر أمر لي:

السيد علي، الملك سمح لك بالدخول.

قابلني سيادته بابتسامة أرغمت بقايا الروح أن تستقر في جسدي، وكانت هي الوحيدة في مجلسه والبقية عابسون متجهمون وأنا

مرتبك خائف.

مد يده مصافحاً:

حي الله علي.

فقبلت رأسه:

الله يحييك يا طويل العمر.

فمازحني:

وشلونك عقب ها الغربة؟!

فابتسمت وبارتباك:

الحياة دروس وهذا درس تعلمته.

فطمأنني:

يا ولدي أنت أنقذت البلد من شي عظيم.

فنظرت إلى الأرض وبخجل:

هذا واجبنا تجاه بلدنا، وحتى لو اختلفنا في الرأي ما أرضى أن أحد يمسكم بشر.

فقام معلناً نهاية اللقاء:

هذا عشمنا فيك وحنا نبي نقدم لك هدية صغيرة.

فجاملته:

رضاك أكبر هدية.

فأشار بيده معترضاً:

لا.. لا بنخليك تكمل الدكتوراه وبنصرف لك راتب ونعطيك بيت.

بامتنان:

أعطيتني أكثر مما أستحق.

مذكراً:

أي شي يا علي نعطيه لولدنا مهوب كثير عليه.

٢٣

يا حياتي.. روحي.. عمري

أطلت برأسها مستغربة:

وبش بلاك.. يا علي؟!

مداعباً:

وش فيها؟ واحد ويدلع زوجته.

مهيب عادتك[1].

ومشيراً بيدي:

البسي هدوم زي الناس ومشّينا.

(١) مهيب عادتك: ليس من طبعك.

مذهولة:

لوين؟!

أنا عازمك على العشاء.

بمناسبة وشو؟!

بسخرية:

بمناسبة عيد حبنا.

نزلنا عند أحد المطاعم العائلية الراقية بشمال الرياض، وكنت ممسكاً يد زوجتي بحنان وهي مرتدية عباءتها الفرنسية المخصرة وقد وضعت لثام نينجا فبدت بعينيها وحاجبيها كإحدى حوريات الحكايات، وزادها جمالاً إلى حسنها ردف وصدر فتّتا أكباد النساء غيرة وكمداً من روعة خلقتهن.

فانتبهت فجأة فإذا بي محاط بأربعة رجال ملتحين يرتدون ثياباً إلى نصف الساق، فتقدم كبيرهم نحوي وبنظرات حقد ووجه فيه شيء من العبوس ـ وهذه مظاهر لا بد أن يتحلوا بها مع العصاة ـ على حد زعمهم.

ـ من إللي معك؟!

فنظرت إليه وببرود:

بأية صفة تسألني؟!

وهنا تقدم أحدهم نحوي:

ما تعرف من نكون؟!

وببلاهة مصطنعة:

مين؟ ملائكة الرحمة!

وبغضب حاد:

تستهتر فينا[٢].. ولعلمك حنا مراقبينك من أسبوع.

وأشار إلى زوجتي.

وها الداعرة اللي معك.

فانتفضت غاضباً:

احترم نفسك يا حيوان هذي حرمتي.

فاشتبكنا بعراك بالأيدي انتهى بنا إلى مركز الهيئة. وهناك حضر الشيخ أبو ياسر الذي لم يقع بين يديه أحد من العصاة إلا وخرّ معترفاً بما لم يقم به.

وهو ينغزني بعرق خيزران محتقراً:

أنت وش اسمك؟!

بنفاد صبر:

هماكم[٣] أخذتم بطاقتي بالقوة.

والمرأة التي معك من تكون؟!

---

(٢) تستهتر فينا: تسخر منّا.
(٣) هماكم: أنتم.

زوجتي يا شيخ.

وشلون تثبت لنا أنها زوجتك؟!

بسخرية قاصداً استفزازه:

لو معها بطاقة كان عرفتوا.

وتغير وجهه وانتفض:

استغفر الله.. استغفر الله. تراك تدعو لذنب عظيم.

ثم غمز بعينه لأحد الجالسين قاصداً زوجتي:

استخدموا معها طريقة الثلاجة.

أرعبتني تلك الجملة وخفت عليها.. تراها ستوضع في الثلاجة أم ستضرب برفها[٤]؟!

أخذ الشيخ يحتسي القهوة وما بقي بيني وبين الانهيار سوى شعرة ضعيفة.. وتمر الدقائق بطيئة والثواني نائمة والوقت ينفذ من سم إبرة حتى عاد نفس الشخص وهمس في أذن الشيخ.

فخاطبني بطريقة المنتصرين:

يا علي وشلون ثلاجتكم؟!

زرقاء.

فحاول أن يضربني بخيزرانته فأمسكتها وهو يزبد:

يا زاني هذه ليست زوجتك.

(٤) ستضرب برف الثلاجة على ردفها.

وبتحد:

وشلون اكتشفت هذا؟!

وبذكاء موسادي محللاً:

المرأة اللي بالداخل تقول لون ثلاجتكم سوداء وأنت تقول زرقاء.

ثم أضاف:

وهل يعقل أن زوجين تختلف أقوالهم حول لون ثلاجة؟

لم أتمالك نفسي وأخذت أضحك ضارباً بيدي على فخذي:

الحمار ما يدري[٥] أن المدام عندها عمى ألوان.

ارتفع الدم إلى وجهه:

يا ضال والله لأورينك جزاء المفسدين.

تذكرت نظرات الرعب في عيني ذاك العامل الآسيوي عندما رأى الهيئة قبل ثلاثة عقود وكأنه يريد لذلك الرعب أن يطل من عيني، فأبيت على الماضي أن يعود:

دامي ما أخطيت ما تقدر تسوي شي.

ثم دار إنساني في محجره باحثاً عن رجل رشيد..

محدثاً فضيلته:

هالحين جبتوني بالقوة وبنقعد أنا وياكم في شيل وحط[٦].

---

(٥) ما يدري: ما يعلم.

(٦) شيل وحط: أخذ ورد.

فتساءل وكأنه لم يسمع:

هاه[٧].

أنا منيب مطاوعكم[٨] وأنتم ما راح تصدقوني.

فابتسم وهو يهز خيزرانته.

مهوب على كيفك.

متجاهلاً عباراته تلك:

وش رأيكم اتصل على الشيخ عمر الدخيناوي؟!

اعتلتهم الدهشة حتى إن أحدهم قال باستغراب:

أنت تعرف فضيلة الشيخ عمر؟!

فابتسمت محاولاً استفزازهم:

لا وأزودك من الشعر بيت تُراه صديقاً شخصياً جداً لي.

وبطريقة شامتة وساخرة:

خلّوه يكلم صديقه.. صديقه.. صديقه.

وأخذ يكررها وكل مرة بشكل، فأخرجت هاتفي النقال ووضعته على المايك وطلبت رقم الشيخ، ومع كل رنة أخذت تقترب عبارات الشماتة من الخروج للعلن وإن كنت أخشى ذلك.. وبدأ الارتباك ينشر أماراته عليّ.

---

(٧) هاه: كلمة غير مؤدبة وتعني لم أسمع.

(٨) مطاوعكم: سأمشي على أمركم.

ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا أبو حسين.

وبحروف خرجت من الحلق على أنغام النصر متجهة نحو الشماتة والقهر:

هلا والله بشيخي.

مداعباً.

وينك يا عليّان ما شفناك؟

بسخرية واضحة:

تعال هالحين وشفني.

وينك فيه؟

بألم ممرور:

في مركز استخبارات الموساد.

فضحك بصوت عال.

منتب عاقل يا خالد مشعل.

فقاطعته:

يا خوي طلعت أنا والمدام نتعشى ومسكونا رجال الهيئة يقولون إن معي عاهرة.

بحنق وغضب:

وهم أعراض الناس مذبوبة لهم؟

فلاطفته:

يا شيخ أصابعك مهيب سوى.

والله إنك صادق.

تعال يا شيخ الله لا يهينك أنا في هيئة السوق.

أبشر.. أبشر وأنا أخوك.

فمان[٨] الله يا شيخ.

أمنك ربي[٩] يا علي.

كيف تعرف هذا العلماني الضال على فضيلة الشيخ عمر؟!

هذا السؤال دار بطرق متعددة في أذهان رجال الهيئة. فالشيخ عمر خلال سنوات وجيزة غدا خطيب العاصمة ومستشاراً لدى الملك. وزاحمت تساؤلاتي في سماء الغرفة تساؤلاتهم. فأين هم من ذلك الشيخ الجليل الذي حدثني عنه أحد الأصدقاء حيث قال: خرجت برفقة صديقة لي فقبضت عليّ الهيئة فتقدم مني الشيخ وقال: يا ولدي دامك تعتدي على محارم غيرك فسيعتدى على محارمك ثم التفت ناصحاً الفتاة: أترين أنك أهل لحمل أمانة بيت وزوج، فالتي لم تحافظ على نفسها فكيف ستحفظ سواها.

ثم أشار إلينا بالمغادرة وهو يقول:

لقد ستر الله عليكم ولكن لا تكرروها فهذا ذنب عظيم.

أعادني للواقع منظر ذلك الرجل وهو يدخل لاهثاً.

ـ يا شيخ.. يا شيخ.

---

(٨) فمان الله: في أمان الله.

(٩) امنك ربي: أدعو الله أن يهبك الأمان.

وراك تركض يا أبا خباب.

بارتباك:

المدير الكبير وصل طال عمرك.

مستغرباً:

وش جابه؟!

ثم أشار إليّ باحتقار:

عسى مهوب جاي عشانك.

فهززت أكتافي ساخراً:

مدري.

ارتفع صوت من بعيد:

السلام عليكم.. السلام عليكم.

فاصطفّوا كأصنام قرشية وبارتباك:

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا شيخ.

محدثاً مدير المركز:

وش صاير عندكم بالمركز؟

بلع ريقه وتوسلت نظراته لبقية فتواته:

ما صار شي.

فقاطعه وبوادر الغضب تفوح من أنفاسه:

ما صار شي والشيخ عمر الدخيناوي يشتكي منكم؟

فحاول امتصاص غضبه موضحاً:

يا شيخ الشخص اللي يتوسط له الشيخ عمر مسكناه ومعه امرأة ليست من محارمه.

وبغضب:

يعني الشيخ عمر يكذب.

بضعف المذنب:

لا.. لا طال عمرك بس إنه مغرر به[١٠].

وبغضب شديد:

ومن حضرتك عشان تقرر كذا؟!

محاولاً تبرير ضعفه:

أنا يا شيخ مسكت الرجل والمرأة التي ادعى كذباً أنها زوجته، سألتهم عن لون ثلاجة بيتهما فاختلفت إجابتاهما.

فصفق يداً بيد وبسخرية:

تقصد نصدق الثلاجة ونكذب الشيخ عمر؟

فتدخلت موضحاً:

المدام يا شيخ عندها عمى ألوان.

فنظر إليه ساخراً:

وإلا بعد ما فيه مرض كذا؟!

ودخلت الرحمة مع الباب ولم تهبط من السماء، فكف المدير عن

---

(١٠) مغرر به: مخدوع.

سخريته والتي جعلت العرق سيداً للموقف بالغرفة.

ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فتقدم المدير مرحّباً:

وعليكم السلام والرحمة يا شيخ عمر.

ثم أشار لمن كان برفقته:

وهذا والد زوجة علي.

مقبلاً رأسه ومعتذراً:

آسفين يا عم، والله ما ودنا أنك عنيت[١١] ولكن خطأ غير مقصود من الإخوان ونرجو المعذرة.

بأدب:

ما صار إلا الخير.. ولو ما جاء من ذا الجية[١٢] إلا أنا عرفناك.

خجلاً وهو يتعرق:

الله يسلمك يا عم.

فلم تعجبني تلك المهادنة فلا اعتذار فضيلته أعاد لي حقي ولا تسامح خالي حفظ لي كرامتي.

فتدخلت بخبث:

طيب يا شيخ كلمة آسف من وين نصرفها؟!

بارتباك:

---

(١١) عنيت: تكبدت مشقة الحضور.

(١٢) ذات الجية: هذه المرة في الحضور.

يا أخي المسامح كريم.

وأنا أشير إليه:

لو الحق معكم ما سامحتونا.

فحاول عمر يهدئني:

احتسبها عند الله يا علي.

معترضاً:

يا شيخ عمر خاطرك غالي ولكن أبغاها تحول للمحكمة.

وبتسرع من أحد أعضاء الهيئة:

والمحكمة لعبة في يدك أنت وأشكالك؟

بسخرية معلنة:

لا.. المحاكم لكم (للمطاوع)، وإلا اتهام بنات الناس أنهم قحاب ما فيها شي؟

فتقدم مني فضيلة المدير محاولاً تقبيل رأسي:

إذا رجل مثلك لم يساعدنا ضد هجمات العلمانيين والليبراليين المتربصين بالبلد.

وش دخلني أنا؟

أنت بشكواك تفتح لهم باباً ويلقون ثغرات علينا.

والمطلوب مني؟!

تنازل عن حقك.

لوحت بيدي معترضاً:

معصي[١٣].

ملاطفاً:

يهديك الله وبتوافق.

لو أنكم مسكتوني مع قحبة بتسترون عليّ؟

فأنزل وجهه إلى الأرض:

لكل حادث ظروفه.

فارتفع صوتي بالضحك وأنا أحدث عمر:

وش رأيك يا شيخ عمر بمشايخ هالزمان، صار الدين كنه بدلة يفصله على مقاسه.

فالتقت عيني بعيني عمر فرأيت فيها عتاب محبة فأمسكت لأجله.

ناصحاً:

يا علي، السخرية بالناس مهيب من عاداتك.

ثم أضاف راجياً:

يا أبو حسين طلبتك إياها[١٤].

يا عمر لو تبي[١٥] روحي عطيتك إياها.

وهو يبتسم:

---

(١٣) معصي: لا.

(١٤) طلبتك إياها: تقال في الرجاء للحصول على شيء عظيم.

(١٥) تبي : تريد.

يعني بتتنازل.

لأجل خاطرك أسوي اللي تبي.

ناصحاً:

اسمع يا علي، ترى لهم حسناتهم الكثيرة وما يحق لنا نلغيها من غلطة واحدة.

مؤيداً بندم:

أعوذ بالله من الشيطان: صدقت يا شيخ عمر.

٢٤

ألو.. ألو.

ها ها ها هلا والله بأكبر مغازلجي في الديرة.

وش دراك يا مس ماربل.

ما فيه شيء يخفى على رفيقك أيمن.

صدّق أنك جني ما يفوتك شي.

مداعباً:

بمناسبة خروجك براءة أنا عازمك في أفخم مطعم بالديرة.

مناكفاً:

ما عندي مانع بس..

مقاطعاً:

بس شنو.

الواحد يخاف يمشي معك.

مستغرباً:

ليه؟!

بسخرية:

ها الإرهابيين اللي قاعد تصيدهم مثل الفيران ظنك ما يبغون راسك.

ضاحكاً من القدر:

ها ها اللي في الكون بيكون[1].

باستسلام:

مرني، والله لو توديني جهنم أحب إليّ من جنة فيها هالإرهابيين.

ربع ساعة وأكون عندك يا مغازلجي.

مر بذاكرتي مدرس العلوم وهو يخبرنا بخواص الحالة السائلة للمادة وطلب منا أمثلة على ذلك.

فقال أيمن:

الماء.

مثال آخر يا علي؟

الدين.

(١) إلي في الكون بيكون: أي شيء مقدر لا بد أن يحدث.

فطردني خارج الصف وبغضب:

تستهتر يا حمار!

أعادني صوت منبه سيارة أيمن من العبث والتجوال في ذاكرتي.

طا طا .. طا.. طا.

مداعباً وهو يشير لي بالركوب:

اركب يا أحلى مغازلجي في التاريخ.

وأنا أهم بالركوب:

أبشر يا مس ماربل بس على وين موديني[٢]؟!

وهو يتحرك بالسيارة:

لمطعم الشيخ لاري سنج.

ابتسمت مستغرباً:

هندوسي وشيخ!

ضحك بصوت مرتفع ثم التفت إليّ:

يعني تحسب المشايخ عندكم بس؟!

وباستعجال فضولي:

لا صدق وش فضيلة الشيخ لاري هذا؟!

أشار بيده مهدئاً:

اصبر.. اصبر، كم قعدت[٣] في بطن أمك.

---

(٢) وين موديني: إلى اين سنذهب.

(٣) قعدت: جلست.

لزم لساني الصمت وبدأ خيالي يجتهد ليرضي فضولي، الدين يدخل في كل شيء بالقوة هنا حتى في أسماء المطاعم.

توقفت بنا السيارة أمام منزل أيمن.

يا الله! انزل يا قمر.

مترجياً وبنفاد صبر:

يا خوي اركب خل نروح لشيخك هذا.

معانداً:

انزل يا رجال.

بغضب وتهور:

أقسم بالله أوجعني رأسي من كثر التفكير بالشيخ لاري.

ارتفع صوت قهقهاته الضاحكة:

يا خوي ماكلين عقلك[٤] هالمطاوعة.

بحدة.

وش تقصد؟

موضحاً بلطف:

تذكر الطباخ اللي عندي؟

وضعت يدي على جبيني متذكراً:

إيه، اللي كان عمر ما يأكل من طبخه.

---

(٤) ماكلين عقلك: مشغلين تفكيرك.

كل القصة وما فيها أنه صار مسلم.

مداعباً:

عساه على يد الشيخ عمر.

وهو يشير لي بالنزول:

الدنيا صارت كلها مشايخ.

وقد بدت لي هذه المرة أن الجهات متعانقة ووثَّقت بحميمية غرستها السنين في قلبي لاري وأيمن، حتى إن لاري أصبح يرى فيه ابنه الذي لم يحضر فأطلت من محاجره إشعاعات الحنان والحب الأبوي.

تسلم يديك يا لاري.

توقف عن جمع بقايا الطعام ونظر إليّ ممازحاً:

شيك لاري لو سمحت.

ألقيت عليه مسبحتي ممازحاً:

ولا يهمك، شيك وبدون رصيد.

ربت أيمن على ظهره:

عقبال ما نشوفك شيك وبرصيد من العلم.

تراقص لاري مداعباً:

أنا يقا يسير مفتي هنا.

أشار إليه أيمن بالصمت:

اسكت لا يكفرونك ذا المهبل.

ثم وجه كلامه إليّ:

يظنونه يستهتر بالمفتي ويذبحونه.

بلع ريقه وتحسس رقبته، وأشار بيديه رافضاً:

أنا في موت.. كلاس ما يبقى شيك.

ما يبقي مفتي.. أنا يبقى يسير لاري وبس.

٢٥

أقام فهد ابن عمي وليمة عائلية مختصرة على شرفي. ورأيت مناكفي الأول في العائلة الشيخ سعد الذي تراقصت آثار السنين على مسرح وجهه ولكن عينيه تخبران عن سيول ذكاء تجمعت في أوديتهم، فتقدمت إليه وأنا أفرك يدي في بعضها خشية من ردة فعل ليست في الحسبان.

فسلمت عليه وأنا أحاول تقبيل رأسه:

السلام عليكم يا عمي الشيخ سعد.

فضربني على صدري:

النار ما تورث إلا الرماد.

فأخذت عقالي الذي قبّل الأرض وأنا أنفض بعض الغبار عنه:

الله يسامحك يا عمي طول عمرك ما تحبني.

فرمى بعصاه التي يتوكأ عليها أرضاً وبدت خطوط الطول ودوائر العرض تتقاطع في وجهه دلالات على غضبه:

ما عليك شرهه[١]، ربيت عند الكفرة يا الهيس الأربد[٢].

فأدرت ظهري له وبعض مقاطع موسيقى شتائمه تصل أذني! وبالرغم من أن الحياة تغيرت وتبدلت موازين القوى العالمية وهلكت الأيام من مطاردة الوقت وتعاضد العقل البشري مع توأمه الإلكتروني للنهوض بالبشرية، فإن أبناء عمومتي اختبأوا خوفاً من التطور وتمسكوا ببيوتهم الطينية القديمة فتخطاهم الزمان وأكلتهم العتة. وضع الشيخ سعد فنجان القهوة ومسح على لحيته وهو يهز رأسه علامة على عدم الرضا:

إن قيادة المرأة السيارة بداية لانحلال خطير، وبعدين اليوم تسوق سيارة وباكر تسوق عشيقها إلى غرفة نومك وإلا وش رأيكم؟!

أخذ السواك من جيبه وأخذ يعمل به يمنة ويسرة وهو يتفحص آثار اكتشافه الخطير على وجوه بلا تعابير سوى تلك التعبيرات المفروضة عليها من قبل التقاليد.

رؤوس تهتز رافضة وأصوات تعالت:

لا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) ما عليك شرهة: ليس عليك ملامة.

(٢) الهيس الأربد: كلمة ذم واستنقاص.

أعاد السواك إلى جيبه ثم قال:

والله لم تبل الأمة بأمر بعد الردة سوى بفتنة قيادة المرأة السيارة.

فقاطعته معترضاً:

ألم تكن المرأة تقود الجمل وتركب الحصان.. فالسيارة مثلهم!

تضاءلت إضاءة المجلس وانكمشت أطراف السجادة واهتزت الفناجين من قوة صرخة مزقت كل الطبلات:

يا علماني هذا اللي جبته[٣] من لندن؟

فعلّت عبارات الشجب والاستنكار لهذا الفكر المنحطّ:

اتق الله تراك بتكفر.

عيب عليك ولد حمايل.

لو تعطلت سيارة زوجتك في آخر الليل وش بيصير لها؟!

أنت ديوث.

مرت عاصفة عباراتي بعد أن احتوى فهد رعود الغضب وأمطار الشتائم وهو يدعوهم لتناول الطعام:

يا الله تفضلوا الله يحييكم.. العشاء.

وبدأنا بعد العشاء نتسامر مع بعض أبناء عمومتي وخاصة أن كبار السن بدأوا في الرحيل إلى مخادعهم. ودار النقاش في شتى الأمور وحرصت على أن أكون مستمعاً حتى لا أثير أحداً منهم ولكن

---

(٣) جبته: أحضرته.

حصان فمي كان جامحاً فلم أستطع السيطرة عليه:

سمعتوا فتوى الشيخ ياسر الياسر عن التأمين؟

وش قال يا حمد..؟!

يقول إنه حرام.

فقاطعه محمد:

بس الشيخ أمجد الماطع يقول إنه حلال!

يا رجال لا يهمك هذا تبع الحكومة.

فتدخلت معترضاً:

أنا أعتقد أنه ما دام فيه مفتي فقوله هو الأصح لأن هذولا ما زالوا صغاراً على الفتوى.

فقاطعني حمد:

بالعكس هذولا اللي تقول عنهم صغار هم اللي ما يخافون لومة لائم.

فتدخل محمد مؤيداً:

الشيوخ هذولا يحببون الناس في الدين.

ثم أضاف ضاحكاً:

أجل الشيخ محمد الغطريفي يقول مرة لصحافي صور أبوي وأمي واسأل الناس أنا من طالع حلو عليه[٤].

---

(٤) طالع حلو: صرت جميلاً.

هاهاها يا خوي الشيخ محمد خفيف دم.

فتساءلت بتجاهل:

من الغطريفي ذا اللي تتكلمون عنه؟!

ما تعرفه؟ هذا شيخ صورته على أغلفة المجلات.

بسخرية.

يعني فتاة غلاف!

بغضب، حمد:

لا تتكلم عن الشيخ أرجوك.

قاصداً مناكفتهم:

مهوب هو اللي مسك في قضية أخلاقية؟

بغضب، حمد:

هذي لفقوها له أمثالك من العلمانيين.

ساخراً:

أجل لو تعرف ماضيه وهو صغير.

فقاما من المجلس وحمد يقول:

ما كذب عمي سعد.

انفضت السهرة مبكراً لأن الخطوط المتوازية لا تلتقي.

وأنا أهمّ بالمغادرة:

أكرمك الله يا فهد.

وهو يحاول أن يستبقيني:

وين بتروح له؟!

للبيت.

متسائلاً:

بتنام هالحين؟!

لا.

وهو يغمز بعينه:

وش رأيك أوديك سهرة يحبها قلبك؟

وين؟!

في قصر قريب.

قد تكون رغبتي لأطلع على الوجه الآخر للبلد هي التي أجبرتني على الموافقة، ولكن تبقى تلك المعرفة ناقصة.

وش هالسهرة؟!

مشيراً بيده علامة الجودة:

حفلة شكشكة على كيفك.

مستغرباً:

يعني جنس ثالث؟

يا حليلك أنت عايش هنا.

أخاف أن الهيئة تمسكنا.

ساخراً:

إذا فيهم خير خلهم يقربون من القصر.

بذهول:

صدق يا فهد جنس ثالث؟!

يا رجال هذولا في كل الدنيا الآن.

متأملاً في كلامه:

في كل مكان إذا ظهر تزمت شديد في الدين لا بد أن يقابله انحلال شديد في الأخلاق.

متسائلاً:

نقيضان لا بد أن يجتمعا.

متأملاً عبارته:

أعتقد كذا.

مداعباً:

الحق سجل نظريتك يا أينشتاين قبل ما يسرقها أحد.

ضاحكاً:

لا تخاف حقوق الطبع محفوظة.

٢٦

حاولت النوم وتوسلت إليه بكل ما هو عزيز ومقدس عنده، وعلى الرغم من أني أمّنت جميع طرق وصوله لي من ليل وإرهاق وتعب وحبوب مهدئة.

كفاك غرور، كفاك غرور.. أرجوك تعال. أعلم أنك عدو للمطر ولكننا سنختبئ عنه على سريري في هذه الليلة الشتائية المطيرة. وقد تكون مكالمة أبي باقر لي سبباً في ذهابك فأعلنت تضامنك معه، آه ما أقسى الأحلام عندما تموت عند قدمي الواقع.

ألو.. هلا أبو باقر.

أهلين أبو حسين.. وشلونك؟

بخير ونعمة وأنت وشلونك؟

الحمد لله أحسن منك.

هذا اللي حنا نبغاه.

أبو حسين بشرني عسى منيرة وافقت على باقر ولدي.

بتردد وارتباك وواضح:

نعم.. ها.. ما صار شي.

أبو حسين لا تحاول تخبي عني، ترانا إخوان.

بصراحة أبو باقر، أنت عزيز وغالي ولكن أهلي وجماعتي ما راح يرضون أني أزوجها لشيعي.

فانفجر غاضباً:

وين كلامك عن الإخوة والمساواة والترابط بين أبناء الوطن؟

موضحاً:

لكل شي حدود، بس...

قاطعني بغضب:

لازم تعرف أن الأحلام والنظريات صعب تحقيقها في الواقع.

مهدئاً:

أبو باقر افهمني.

أنا فهمت شي واحد، إنك ضعيف.

لو سمحت أبو باقر خل اشرح لك.

فمان الله يا أبو حسين.

أين أنت أيها النوم أريدك. أريدك مللت من عذاب التفكير وصدى عبارات أبي باقر خناجر مسمومة تؤلمني.. وتهيئني لموت الأمل بداخلي.

تنبهت جميع حواسي مع أول رنة من هاتفي المحمول، وانقبض صدري، ويا للعبة القدر. ومع تلك الرنة بالذات تبللتُ عرقاً بالرغم من شتائية الزمان والمكان وتراقصت أصابع يدي.

فتناولت هاتفي بين إدبار الخوف وإقبال المتردد وتسارع كل شيء.. دقات قلبي وارتعاش يدي وضغط دمي وصرنا في زمان الصمت.

فجاوبت المتصل بخوف:

هلا يا شيخ عمر عسى ما شر، مهيب عادتك تزهم هالوقت؟!

جاءني صوت واهن متعب بالحزن:

علي.. علي

ثم انخرط في بكاء حاد ومر، فارتبكت وتلعثمت وبكيت بلا إدراك للموقف:

عمر وش صاير؟

اختفى صوته الواهن خلف عبراته:

أيمن.. يطلبك الحل[1].

فقدت القدرة على النطق.. على البكاء.. على التفكير.. على

---

(١) يطلبك الحل: مات.

الحزن.. على الألم.. على كل شيء.

فتعبّر[٢] وخرجت حروف قطعها الأسى:

ذبحوه الإرهابيين.

لا أتذكر أيهم أسرع وصولاً إلى الأرض دموعي أم هاتفي، كل شيء ضاع حتى حزني ضاع مني فلم أدر ما حالتي، أحسست أن الجميع يبكي ولكنني بقيت أوفاهم وأصدقهم، حتى السماء توقفت عن إرسال دموعها! لماذا أيتها السماء؟

يقولون إن نزول المطر رحمة، إلا في تلك الساعة فقد كان حزناً ووفاء لذلك الشهيد الذي أبى إلا أن يكون أفضل منك، فأنت تسقين الأشجار بمائك عدا شجرة الوطن التي كان لها أيمن ساقياً وراوياً بدمه الطاهر العذب.

لم يبق أحد سواي والليل الذي كان نائماً إلى جواري، وإن كنت أجرح سكونه ببعض النشيج.

أيمن، أخذت تذكرة سفرك وتركتنا نترقب عودتك ولم تخبرنا بأنها رحلتك الأخيرة، أتذكر عندما قلت لي إنك «تستطيع هزيمة جيوش العالم مجتمعة ولكنك تنهزم أمام دمعة في عين أمك»، أتذكر عندما حضرت معك التحقيق ذات مرة مع والد شنباوي الإرهابي وكيف وبختني بعنف على تصرفي الطائش تلك المرة؟ أتذكر لماذا عنفتني أم أذكرك؟!

---

(٢) فتعبر: بكى بطريقة متقطعة.

عندما قال والد الإرهابي:

يوم ولدي ترك الدشرة[٣] وصار يمشي مع المطاوعة فرحنا له ولكن يوم صار مع الإرهابيين فأنا متبرى منه لين أموت

فقاطعت حديثكما بغضب:

أنت وأمثالك المسؤولون لأنك تركته بدون رقيب ولا حسيب.

متسائلاً بضعف:

وشلون يا ولدي؟

بغضب وبصوت مرتفع:

سألته من هو يمشي معه؟! وين يروح؟!

بطيبة وعفوية:

مع المطاوعة.

أنتم قدستموهم وحطيتوهم ملائكة ما يخطئون وهذي النتيجة.

وهو يبكي:

ما لنا ذنب يا ولدي.

خدعتوهم بتعاملكم هذا فاعتقدوا أنهم هم الصح والعالم كله خطأ.

---

(٣) ترك الدشرة: تخلى عن طريق الانحراف السلوكي.

يا ولدي ما أحد يتعلم ببلاش.

يا عم لا تظن أن كل من قصر ثوبه وترك لحيته دخل الجنة.

الله يعفو ويتسامح عنا وعنهم.

تذبحون الناس وتقولون الله غفور رحيم.

ما ذبحنا أحد يا ولدي.

وأنا أهز يدي بغضب:

المفروض أنت وأمثالك من أولياء الأمور تحاكمون قبل عيالكم.

فقاطعتني بغضب:

يا علي عيب عليك شايب، كبر أبوك وتقول له هالكلام؟!

بس يا أيمن.

قاطعتني ناصحاً:

ظنك أنه يبغى ولده يصير كذا ولكن ما بيده حيلة.

آه لو قرأت الرسائل التي وردت على هاتفي المحمول من أرقام لا أعرفها ورابطها الشماتة والسخرية! حبيبي أتريد أن تسمعها؟! سأقرأها عليك:

(عقبالك).

(الدور عليك).

(تخلصنا من الشيطان وبقى إبليس).

(راح نصف الشر وبقي نصفه).

(هذي هدية لك من المجاهدين في سبيل الله).

(بنخليك[٤] تلحق رفيقك وتجتمعون في النار).

(أحلى تحية من المجاهدين رصاصة بلون الدم).

(العزة للإسلام فقد بدأت حصون الطواغيت تسقط).

وتاسعة وعاشرة. ومائة. وألف. أغبياء. يظنون أنهم بسخريتهم تلك يؤلمونك أو أنهم سيلطخون تاريخك المشرق الأبيض. أتعتقد عندما شطبوا اسمك من قائمة الأحياء قد أنهوك أو ألغوك؟! قد يكونون أزالوك كاسم ولكن ستبقى رمزاً فإن مسحوك كحروف مكتوبة أمام أعينهم فقد حضرت في شقوق ذاكرتهم. فشكراً لهم عندما منحوك شرف الانضمام إلى عالم الخلود التاريخي.

******

أغلقت الطرقات أبوابها أمام السيارات ولكنها استقبلت الناس بكل معاني الحزن واللهفة، والزحام شديد جداً حول المسجد بدائرة واسعة أما في داخله فمحشر اجتمعت له كل طبقات المجتمع. مواطنون وعمال ووزراء ورجال أعمال. بعضهم جاء حزناً والبعض فرحاً بانتصار الحق وقتل أحد زنادقة الحكومة كما يطلق عليك بعض الشراذم منهم. يا ليتك تكشف الغطاء عن راسك وترى كم من عين دمعت لأجلك بصدق وكم من ابتسامة شامتة بانت بصدق، وكنت أسير خلف الجنازة مخدراً أو مسحوراً أو سمها غيبوبة، فلا أدري عن شيء ولا أعي شيئاً

(٤) بنخليك: سنجعلك.

سوى البكاء فالجميع يبكي.. حتى البكاء بكى وكل شيء بكى وأي شيء بكى واللا شيء بكى.

أتعلم أن الشيخ لاري جعل كل أحزاني ورقة يابسة تتلاعب بها رياح حزنه. فعندما وسدوك التراب وفراشك أصبح تراباً وأغبرت سماؤك قبل أن تصير تراباً جثا عند قبرك وبكى وهو يحثو التراب على نفسه.

ويصرخ:

كلاس أنا ما يبغى اسلام.. أنا يبغى هندوس.

فتعالت الأصوات:

الكافر هذا أقيموا عليه الحد(٥).

فتدخل عمر وبوقار:

يا إخوان ما كفر ولا تلومونه، تراه أسلم بفضل الله ثم بفضل أيمن ــ الله يرحمه ــ.

فعلاً صوت شامت:

اسدحوه(٦) جنب كفيله.

غادر الجميع باختلاف مشاعرهم من حزن لفراقك أو عزف له شيطانه على وتر حقده ليرقص، ولم يبق سوانا نحن الأربعة عمر ولاري وأنا وأنت.

---

(٥) أقيموا عليه الحد: عاقبوه بما نص عليه الدين.

(٦) اسدحوه: دعوه ينام.

فجلس عمر إلى جوار لاري مواسياً:

يا لاري أيمن ـ إن شاء الله ـ يروح الجنة.

فتلفت إلى عمر بغضب:

إسلام فيه كل نفر يذبح نفر تاني.

تدخلتُ وبغصة حزن:

لا يا لاري إسلام كويس.

وهو يحضنه:

سوف شيك أمر أنا هبي أنت وهبي أللي بس..

وهو يحتضنه:

الله يهديك يا لاري وراه؟

هذا نفر هندوسي، ما فيه يذبح نفر هندوسي تاني.

فقاطعته:

الإسلام كذا وأحسن.

معترضاً ودموعه تتقاطر:

ليس هذا مسلم يذبح أيمن؟!

ثم يبكي بحرارة:

أيمن ما فيه مسلم؟.. عشان نفر يسوي كذا.

فقلت بحقد غاضب:

مسلم وأحسن من إسلام هالجهال.

أيمن نحن بدونك خريطة بلا حدود.. بلا معالم.. بلا قيمة.. آخ لو ترى صمت الهواء في وداعك لم ينقل لنا شيئاً. لا أكسجين ولا أصوات

توقفت بي سيارتي أمام منزل صهري، وليتني أعرف كيف قادتني سيارتي إلى هناك.. فطرقت الباب وأنا أحاول أن أستقطب شفاهاً لابتسامتي.

فجاوبني طلال الصغير من خلف الباب الموصد فتعليمات والده صارمة: لا تفتح الباب لأي شخص لحد ما تعرف من هو وإلا يا ويلك ويا سواد ليلك.

مين.. من أنت؟!

فلاطفته:

حبيبي طلال أنا خالك علي.

فجرى إلى الداخل وهو يصيح:

يمه خالي علي.. يمه خالي علي.

فجاءت أمه مسرعة وهي تعتذر:

العذر والسموحة(٧) يا خوي قطعناك(٨) عند الباب.

بابتسامة مسروقة:

---

(٧) العذر والسموحة: اطلب منه العذر والسماح.

(٨) قطعناك: أخرناك.

ما صار إلا الخير وأنا أخوك.

وبدا الخجل عليها وهي وتبالغ في إكرامي، فلأول مرة منذ عقد من الزمن أزورها، ولعلي قرأت تساؤلات كثيرة في ملامح عينيها:

تفضل بالمجلس أبروح أصلح القهوة.

مجاملاً:

وين أبو معاذ؟!

هالحين بيجي.

وأردفت موضحة:

راح يجيب البراء من التحفيظ.

برصاصة حقيرة ازهقت روحك.. (أتذكر عندما خاصمت صاحبك في العمل لأنه يعامل المساجين بقسوة وقلت له: إنهم بشر مسلمون مثلنا. أتذكر عندما شتمت مطوعاً أمامك ونصحتني فقلت هالبلد ما عزه ربك إلا بهم ولكن فيه ناس يبغون يشوهون صورتهم الطيبة فتنكروا في زيهم).

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقمت من مكاني متجهاً نحوه:

وعليكم السلام حيا الله أبو معاذ.

وهو يشير لي بالجلوس:

تفضل حيا الله من جانا.

فجاملته وأنا أجلس:

الله يحيك أكثر.

ثم رفع صوته بالصياح:

عطنا القهوة يا معاذ.

دخل علينا معاذ حاملاً القهوة وتجاهل وجودي فلم يبادرني بسلام، أو ابتسام فهو منذ أن غدا منضماً لجماعة يطلق عليها العامة مجازاً (التكفير والهجرة) صار يراني علمانياً خارجاً من الملة، بل إنني حجزت لي طاولة بست مع هامان وأبو جهل في مرقص فرعون القابع في الدرك الأسفل من النار.

صب فنجان قهوة وقدمه لوالده:

تقهو يا يبه[٩]؟

أشار ناحيتي:

عط خالك[١٠].

متجاهلاً:

تقهو يا يبه؟

مذكراً:

عط خالك.. والا نسيته؟

وبدون أن ينظر إليّ:

---

(٩) تقهو يا يبه: تفضل الفنجال يا أبي.

(١٠) عط خالك: أعطِ خالك.

ما عندي أخوال.

فغضب والده وهو يريد القيام لضربه:

خالك يا حمار.

فهرب ووقف بباب المجلس والدموع تقاوم أجفانه لتخرج:

ودي أصب له سم هالعلماني الكافر.

فأراد والده اللحاق به فمسكته وقلت له:

المشكلة مشكلة فكر يا أبو معاذ.

أطرق خجلاً وهو يعتذر:

لا تأخذ بخاطرك، مراهق ويمديه يعقل[١١].

نظرت إلى السقف وإن كان بصري الحقيقي قد تجاوزه إلى أفق بعيد حيث رأيت أيمن ووجه عمر المشرق:

أخاف يا أبو معاذ يسوي مصيبة توديه للموت وهو يظنها شهادة.

ذُهل الوالد من عبارتي وكأني كشفت له حجباً أو أخذته معي إلى عالم السماء فأطلعته على الغيب. وتركت والده في ذهوله وحيرته وقمت مغادراً وأنا أردد:

أستغفر الله.. استغفر الله.

«تمت»

---

(١١) ولدية وقت ليصبح عاقلاً.

المؤلف

مواليد بلدة القرينة سنة ١٩٧٧م.

يعمل حالياً معلماً للتربية الفنية.

عمل في مؤسسة «الجزيرة» الصحافية لسنوات عدة عبر الجريدة المسائية.

له مشاركات صحافية عبر مطبوعات عدة.

شارك في تأسيس مجلة «نون».


مبارك علي الدعيلج
المطاوعة
في آخر الليل وكلكم نايمين وأنا كنت
متظاهراً بالنوم وطالباً وده رغم
العداوة الناشئة بيننا، رأيت أبو جلنغط
ينهض من فراشه وهو يسرق خطواته
سرقة، وتبعه بعد قليل العطريفي
فاستبد بي حب الاستطلاع وقهر
خوفي وأرقي فتبعتهما وإذا بهما في
إحدى الغرف المغلقة وتصدر من
داخلها أصوات امرأة غارقة في اللذة
الجنسية. وتلصصت واسترقت النظر
إلى الداخل فإذا بي أرى ملابس
متناثرة في أرجائها فلم أدر ما الذي
جعلني أتصبب عرقاً وأفر هرباً إلى
فراشي. أهو الخوف من أن يعلم أبو
جلنغط بما رأيت أم خوفاً من أن
يصيبني ما أصاب ذلك المتأنث.
ISBN 9953-21-253-8
9 789953 212531